مجبرون

الطبعة الثانية

أحمد يعقوب

بقلمك للنشر الإلكتروني

DINA
AbdElFatah

مُجبَرون

أحمد يعقوب

اسم العمل: مجبرون

كاتب العمل: أحمد يعقوب

غلاف خارجي: دينا عبدالفتاح

غلاف داخلي وتعبئة وتنسيق: رحاب جمال

تدقيق لغوي: هبةالله عيسى

رقم الإيداع: 2019/13877

الرقم الدولي: 978-977-6730-47-2

الناشر: داربقلمكِ للنشر الإلكتروني

بيت القارئ والكاتب

موقع داربقلمكِ للنشر الإلكتروني

صفحة داربقلمكِ على الفيسبوك

قراراستكمال مسيرة الحياة....

إهـــــــــداء

إهداء إلى أبي وأمي وإخوتي؛ رحاب ورحمة ومصـــطفى الذين يمنحونني النور والسعادة...

إهـداء إلى أبطـال القصـــة الحقيقيين في كـل مكـان بالعالم...

إهداء إليك!

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لا شريك له في ذاته ولا صفاته ولا في أفعاله، بل هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به أحد من خلقه في إكثاره و إقلاله، لا يحصي أحد ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه على لسان من أكرمهم بإرساله...

وبعد،

هُجِّرَ النبي ﷺ من مكة باكيًا على فراقها، حزين القلب، لكن دخل المدينة بانيًا مبتسمًا، يعمل بين أهلها على بناء مجتمع متماسك من كافة الجوانب ويعمل على استثمار الطاقات الموجودة لتكون هجرته بناء دولة فتحت العالم. رغم كل هذه المحن والابتلاءات في هجرتنا علينا أن نتأقلم مع واقعنا في الهجرة ونترك خلفنا بصمة وبسمة عند المجتمع

المضـيف كما فعل الصـحابة في الحبشـة؛ حيث لم يتوقفوا عندما وجدوا الأمان لأنفسهم فقط بل قاموا بنشـر العلم الرباني الذي تلقوه من سـيد المرسـلين عليه الصـلاة والسـلام وتركوا أكبر أثر؛ حيث أسـلم رأس هرم الدولة "النجاشي". يجب علينا أن نعرف الى أين نسـير في هجرتنا؟ هل نحو بناء من جديد أم هدم فوق هدم؟

هذه الرو اية التي بين يدي القارئ العزيز من تأليف أبطالها؛ بناء على احداث حقيقية تحكي قصـة و اقعية حدثت مع عائلة سـورية مثل آلاف العائلات السـورية، نقلتها ودونتها بكل شـفافية لرغبتهم في ذلك وتقديرًا وإجلالًا واحترامًا لهم على ما تعرضـوا لـه، كمثل آلاف العائلات من الشعوب الذين يفرض عليهم الهجرة وترك منازلهم وأعمالهم لظروف فرضتها عليهم الأيام والأحداث، فكان لا بد من الهجرة إلى أرض الله

الواسعة.

الكثير من المحللين يقولون أن هذه الهجرة هي سلاح ذو حدين فيها سلبيات و إيجابيات، وبالنظر إلى الو اقع فإن العلامات تدل على أنها فعلًا سلاح ذو حدين؛ حيث كانت الهجرة حركة بناء فعالة وفي الطرف الآخر معول هدم، ولنرَما هي الدلائل على هذا الكلام؟ الهجرة حركة بناء فعالة وسلاح قوة في يد المهاجرين.

المكسب الأعظم هو أن يترك المهاجرون بصمة في قلب أي مكان وصلوا إليه وكأنه فتح إسلامي بالكلمة لا بالسيف، بالخُلق لا بالنطق.

إن الشعب السوري الذي هاجر إلى مختلف أصقاع العالم، رغم ما تعرض له من آثار الحرب ومعاناة الهجرة أبدع في نقل قضيته أينما حل.

يُعد الوعي ركنًا أساسيًا في بناء الدولة القوية،

وساهمت حركة الهجرة في نشر الوعي في بلاد اللجوء على الصعيد الفردي في زيادة مساحة الحرية للتفكير والإبداع.

إن تبادل الثقافات بين الدول والاندماج مع مجتمعات لها عادات وتقاليد جديدة ساعدت السوريين في إغناء المعرفة لديهم وإكسابهم حقوقًا، وبعض الدول قد أعطت الجنسية للبعض من السوريين، وقد يكون لهم مكانة خاصة لم تكن لهم في بلدهم لتشجعهم على الإبداع والتطوير في أغلب المجالات العلمية والعملية.

جلستُ في استقبال المنزل، وأشعلت التلفاز أتابع الأخبار و أتصفح الهاتف المحمول، أشاهد مجموعة من الصور القديمة، وقعت عيني على إحدى الصور لمنزلنا في "دير الزور" و أنا جالسة في البهو على أريكة من الجلد الرمادي، ارتسمت ابتسامةٌ على وجهي بها الكثير من الحب والحنان والعاطفة، ولكن لم يبقَ من هذه الذكرى سوى صورة على الهاتف، وبعد هذه الصورة دخلتُ في شرودٍ اختلطت فيه ذكريات الماضي...

أنتظر ضوءًا جديدًا يمكن أن يتسلل إلى قلبي الحزين فيعيد لأيامه البهجة، ويعيد لقلبي نبضه الجميل، أحاول البحث عن حلمٍ خذلني، بل أحاول أن أجعل من حالة الانكسار بداية حلمٍ جديد، ولم أقف كثيرًا على الأطلال خاصةً إذا كانت الخفافيش قد سكنتها، والأشباح عرفت طريقها إليها، بل أبحث عن صوت

عصفورٍ يتسلل وراء الأفق مع ضوء صباحٍ جديد لا أنظر فيه إلى الأوراق التي تغير لونها وبهتت حروفها وتاهت سطورها بين الألم والوحشة، سوف أكتشف -بإذن الله- أنَّ هذه السطور ليست أجمل ما كتبتُ، وأنَّ هذه الأوراق ليست آخر ما سطرت، لم تكن هذه السطور مجرد كلامٍ عابر، لكنها مشاعر قلب عشقها حرفًا حرفًا، ونبض إنسانٍ حملها حلمًا، واكتوى بنارها ألمًا. لا تكن مثل مالك الحزين؛ هذا الطائر العجيب الذي يغني أجمل ألحانه وهو ينزف، فلا شيء في الدنيا يستحق من دمك نقطة واحدة، إذا أغلق الشتاء أبواب بيتك وحاصرتك تلال الجليد من كل مكان فانتظر قدوم الربيع، و افتح نو افذك لنسمات الهواء النقي، و انظر بعيدًا سوف ترى أسراب الطيور قد عادت تغني، وسوف ترى الشمس وهي تلقي خيوطها الذهبية فوق أغصان الشجر لتصنع لك

عمرًا جديدًا، وحلمًا جديدًا، وقلبًا جديدًا سأحاول من الآن دفع عمري لإحساس صادق وقلب يحتوي، ولا أدفع منه لحظة في سبيل أيام مضت أو قلوب تخلت عن الرحمة؛ فالعمر حين تسقط أوراقه لن تعود مرة أخرى، لكن مع كل ربيع جديد سوف تنبت أوراق أخرى، فانظر إلى تلك الأوراق التي تغطي وجه السماء ودعك مما سقط على الأرض.

إذا كان الأمس ضاع فبين يديك اليوم، وإذا كان اليوم سوف يجمع أوراقه ويرحل فلديك الغد، لا تشعر بالحزن على الأمس فهو لن يعود، ولا تأسف على اليوم فهو راحل. إننا أحيانًا قد نعتاد الحزن حتى يصبح جزءًا منا ونصير جزءًا منه، وفي بعض الأحيان تعتاد عين الإنسان على بعض الألوان وتفقد القدرة على رؤية غيرها، ولو أنه حاول أن يرى ما حوله لاكتشف أن اللون الأسود جميل ولكن الأبيض أجمل منه، وأن

لون السماء الرمادي يحرك المشاعر والخيال ولكن لون السماء أصفى في زرقته، فسأبحث عن الصفاء ولو كان لحظة، و أبحث عن الوفاء ولو كان متعبًا وشاقًا، ولن أترك قلبي ومشاعري و أيامي القادمة لأشياء ضاع زمانها.

الماضي لم يغادر خيالي ليلًا ولا نهارًا، ولم أعد أصدق ما كنت أعيش فيه وما أنا فيه الآن، عقلي ما بين التشتت والارتباك، وروحي ما بين الطموح واليأس، انقسم كل شيء بداخلي إلى قسمين، لقد تغيرت حياتي جملة وتفصيلًا أنا وعائلتي، الحزن لم يكد يذهب عني طيلة سبع سنوات ماضية؛ التي عشت فيها مرارات لم أعد أتذكر عددها من كثرتها وقسوة أحداثها كل مرة، في كل مرة ينجيني الله بفضله وبأشياء عجيبة، و أنجو أنا والعائلة بشيء قريب من المستحيل بفضل الله وقدرته.

هذا الوضع تخطى أكثر من ساعة، ساعة الحائط تدق الثالثة بعد الظهر، والدقة الثانية كانت دقة باب الشقة، يدخل الزوج بعد الرجوع من العمل، يبدو عليه الإرهاق والتعب، دخل و انتظر خلف باب الشقة من الداخل، ترك الحقيبة ذات اللون الأسود التي كانت في يده على منضدة بجانب الباب، وخلع الحذاء، ووقف انتباه مثل كل يوم بعد الرجوع من العمل للوفاء بالوعد الذي أخذه هو وزوجته على نفسيهما بقبلة بعد رجوعه من العمل تخفف عنه مشقة وتعب اليوم، و أيضًا مكافأة للزوجة على انتظارها. مرت أكثر من خمس دقائق ولم تصل الزوجة للوفاء بوعدها، قلق الزوج وقال في نفسه: لماذا لم تأتِ زوجتي مثل كل يوم على مدار السنة وثلاثة أشهر الماضية عدا أيامًا معدودات، ماذا جرى اليوم؟! وما عذر عدم وجودها؟!

أسرع الزوج الذي خطف الخوف وجهه وقلبه من القلق على زوجته، وأخذ الممر المؤدي إلى استقبال البيت ركضًا، فوجدها تجلس على كنبة، دخل الزوج وتحركت بعض الأشياء، وقف أمامها ويكاد يقطع شعاع نظرها المصوب نحو مزهرية الورود، لكنها في عالمها الخاص، ظنَّ الزوج أنه أصابها العمى أو شيئًا لا يعلمه، أمضى الزوج نحو دقيقة أمام عينيها والزوجة لا تتحرك، الزوج يصرخ بصوتٍ عالٍ: "إسراء"! الرأس يتحرك ببطءٍ إلى أعلى في اتزانٍ تام.

- حمدًا لله على سلامتك، آسفة لم أنتظرك مثل كل يوم.

- آسفة ماذا؟ كاد أن يتوقف قلبي من الخوف عليك، وأخذت أسأل نفسي ماذا حدث؟ والشيطان يجيبني إجابات جعلتني أقلق أكثر.

ردت مرتبكةً بعد أن اعتدلت في جلستها وأعطت لنفسها العِنان ورفعت يديها إلى عينيها لتمسح أثر البكاء الذي كان في طريقه للتساقط.

- استعذ بالله من الشيطان ولا تشغل بالك عليّ، فقط غرقت بأيام صار اسمها ماضي اليوم.

يبتسم هو الآخر ابتسامةً دافئة وينزل على ركبتيه ويمسك بيدها ويقبلها ويقول لها بصوتٍ و اثق:

- لا تفكري في الماضي، لا للإرهاق الذهني، لنجعل تركيزنا على اليوم والغد، ونهتم بأنفسنا أنا و أنت و ابنتنا التي أنعم الله علينا بها.

فردت بابتسامةٍ خفيفة:

- معك الحق كالعادة، ليس بأيدينا غير الوقت الحاضر، هي ساعة شرود ومضت على أي حال.

ضحك الزوج ثم قال:

- أين قبلة اليوم، انتظرتها منك طوال اليوم حتى في النهاية تبخلين علي بها!!

ابتسمت الزوجة ابتسامةً أزالت بها آثار ذكريات الماضي وقالت هاربةً:

- الغداء.. ذاهبة أحضر لك الطعام، بالتأكيد أنك جائع اليوم ومتعب جدًا.

أخذ الزوج يتطلع في وجهها في ترقُّبٍ حتى وصلت إلى باب المطبخ، واستدار برأسه بابتسامةٍ بها كثيرٌ من معاني الحب والعشق التي يحملها لها.

- كعادتك تجدين عذرًا للهرب دائمًا، و أنا أيضًا سأبدل ملابسي، بعدها نتحدث عن تفكيرك الزائد الذي يأخذك مني ويسلب كل تركيزك الذي هو من حقي ونصيبي، فلتعلمي أنني أغار جدًا، وأشعر أن خيالك وذكرياتك تمتلكك أكثر مني.

الزوجة بضحكة ساخرة:

- حسـنًا، أعدك أن أكون أنا وعقلي وتركيزي وتفكيري كلهم لك وحدك.

وبعد وجبة غداء شهية يمدح الزوج زوجته:

- يا الله على هذا الطعام! طيب جدًا، كعادتك صاحبة نفس طيب بكل شيء تصنعينه.

ابتسامة رقيقة تظهر على الوجه:

- لا حرمني الله منك ومن حنانك وكلامك ومجاملتك.

استعجب الزوج ورفع الحاجب الأيسر أعلى من الأيمن:

- أبدًا، لم أكن أجاملك أيام ما كنت أتغزل في جمالك أو أحكي عن مدى روعة الطعام الذي تصنعينه، أنت بكل صراحة ومن القلب من أعظم النعم التي منحني

إياها الخالق -عزوجل-.

الاستحياء والخجل من جمال الكلمات يجعلها تضحك بخدود محمرة:

- و أنت أيضًا، أمنية كنت أحلم بها دائمًا، ونعمة دائمًا كنت أدعو ربي أن يمنحني إياها حتى أصونها وأحبها وأحافظ عليها.

- يا الله! زوجتي تقول شعرًا!

الآن وقت المساعدة في إخلاء طاولة الطعام وغسل الأطباق وتجهيز الشاي والحلوى.

بدأ بنقل الأطباق من السفرة إلى المطبخ.

- و أنا سأغسلها ثم أحضر الشاي والحلوى، وبعد الانتهاء من نقل الأطباق عليك الذهاب لغرفة "آفين" للاطمئنان على نومها.

- وهو كذلك قائدة البيت.

على أطراف الأصابع وفي ظلام الغرفة التي لم يكن بها شعاع ضوء سوى ضوء مصباح لونه أزرق، مثل الفراش الأزرق الذي تلتف الأميرة الصغيرة به وتنعم فيه بنوم هادئ ودفء ممتع بعيدًا عن صخب وضوضاء الشوارع والأصوات، نظر الوالد بنظرة عطف وراحة، استرخت أعضاء جسده بالكامل و انشرح وجهه وقلبه برؤيتها تنعم بنوم ممتع ووجهها ترتسم عليه ابتسامة كأنها تلعب وتمرح في أحلامها وقال بصوت هادئ:

- جعلك الله ذرية صالحة لي ولأمك، يا رب نسألك أن تحفظها لنا من كل ضرر.

ومثلما دخل على أطراف الأصابع لم يختلف خروجه كثيرًا، وخرج يتحسس الحائط لكيلا يصطدم بشيء يزعج الأميرة ويخرجها من أحلامها الجميلة.

الزوجة هي الأخرى تجلس في الصالة ويبدو أن الأميرة

قد أخذت وقتًا كبيرًا من وقت أبيها.

نظر على المنضدة التي تجلس خلفها الزوجة، فوجد الشاي والحلويات التي تساعد على زيادة نسبة السكر في الدم، وتشير إليه الزوجة بوضع إصبعها في كوب الشاي تعني بذلك أن درجة حرارة الشاي قد انخفضت ووصلت إلى ٤٠ تحت الصفر.

قالت الزوجة في غرور:

- مثلما أخذني تفكيري منك، أخذتك "آفين" مني حتى وهي نائمة!

ضحك من كلامها:

لم أكن أتوقع أن من كانت منذ ساعة تتذكر أسوأ الأيام يمكنها قول جملة تجعلني أنهار من الضحك!

جلس بجانبها وأمسك بكوب الشاي الذي غمست به إصبعها:

- يا له من دفء وزيادة في السكر من أثر إصبعك!

- يا لها من مجاملة مفرطة منك زوجي العزيز!

- ألا تنوين التحدث معي الآن؟

- بماذا؟

- بمَا كنت تَشْرُدِينَ به لساعات.

- أشرد؟ لا شيء.

ضحك بصوت مرتفع وقال بابتسامة ممزوجة بالسخرية:

عندما وقفت أمامك لوقت طويل ولم تشعري بي؟ إذًا لوكان سارق سرق المنزل وخطف ابنتنا لما شعرتي به، لا تخبئين عني شيئًا حتى لوكان مجرد تفكير، أحب مشاركتك كل شيء في حياتك.

نظرت إليه مندهشة قليلًا:

- لا أحب أن أشغل بالك بما لا يهم.

- كيف لا يهم؟ شأنك كله يهمني، لا تقولي ذلك مرة ثانية.

- لم أقصد حبيبي، ولكن لا أحب أن أحملك همًا فوق همك في العمل.

- أنا أحب حمل هم معشوقتي وجميلتي، هل لديك حبيب غيري تحكين له؟

استغربت وظهرت عليها علامات الاستفهام مع ظهور بعض الحزن من الجملة الأخيرة:

- لمَ تقول ذلك؟ أنت كل شيء لي الآن، فأبي وأمي لديهما خمسة أفراد غيري أما أنا فلدي أنت فقط.

ابتسامة من القلب والعيون تتلاقى والنظرات تتبادل وبهما الكثير من المشاعر الطيبة:

و أنا أبي وأمي لديهما ثلاثة أفراد غيري، أما أنت لي و أنا لك فقط، وأريد معرفة كل شيء في الظاهر، وفي عقلك الباطن، كل يوم من الآن سنجلس مع بعضنا سويًا لساعتين نتحدث فيهما عن كل ما تفكرين به؛ فقد حزنت عندما رأيتك تشردين مع نفسك و أنا

أحق منها بالتحاور معك، أتوسل إليك، أعطني هذه الفرصة لكي أشعر حقًا أنني حبيبك ومعشوقك ولك فقط، ولم يشغلك عني حتى لو كانت مجرد أفكار وذكريات الماضي بالداخل، أخرجيها لي و اتركيني أنا أنشغل بها عنك.

من هذه الكلمات التي لم يكن منها غير الانبهار بكلماته ابتلعت ريقها الذي كان جافًا ونغمة صوت كلها شجن ورقة:

- أنت الحبيب الأول والأخير، أنت السند.

نهضت من جلستها على الكرسي ونزلت على ركبتيها ووضعت رأسها على صدره وأغمضت عينيها.

وهو الآخر قام بتقبيل رأسها قبلة أمن واطمئنان.

وبعد بضع دقائق من الحب والدفء بين الطرفين قال "معتصم":

- الآن أخرجي ما بك.

لم تتردد وقتها في إبداء أية أعذار وأسباب أو تردد وتابعت قائلة:

- كنت أفكر في الماضي؛ في سوريا قبل قيام أحداث العنف بها، خلال حياتنا المستقرة الممتعة، تذكرت انتظار أخي "حمزة"، رجوعي من الجامعة كل يوم خميس للخروج والترفيه في الأماكن الأثرية، والجسر المعلق والمقاهي الشعبية في مدينتنا الجميلة "دير الزور"، كان يوم الخميس عادة يومًا جميلًا في حياتنا وتقريبًا في حياة كل شاب أو فتاة سورية؛ نهاية الأسبوع، نهاية العمل أو الدراسة ومحاولة أخذ قسط من المتعة في نهاية يوم الخميس، كنا نشعر بالراحة في الشوارع، والضحك واللعب والمرح في كل مكان، ترى على وجوه الناس الابتسامات، ولا فرق بين كبير السن وصغير السن، الكل يخرج ليستمتع، الكل يخرج ليضحك ويترك همه وتعبه حتى انتهاء الجولة، جولة

استمرت معي أكثر من سبع سنوات تقريبًا أنا وصديقتي الجميلة، تقريبًا أتذكر كل يوم خميس؛ لأنَّ كل سهرة كانت بتفاصيل مختلفة عن الأخرى، كانت أيام في غاية الروعة وخصوصًا بعدما دخلت الجامعة.

- أنتِ كنتِ في كِلْيَة التجارة جامعة دمشق أم دير الزور؟

- بالطبع جامعة "دير الزور"، دخلت الجامعة عام ٢٠٠٧، كنت في منتهى السعادة بدخولي الجامعة، كنت أعشق الدراسة والمشاريع والتعرف على أشخاصٍ جدد من مستوياتٍ مختلفة، الذي أتعرف إليه أضمه كصديقٍ في صحبتنا الجميلة.

- أريد أن أعرف كيف كان أخوتك قبل الأحداث؟

- حسنًا، "طاهر"؛ أخي الأكبر، كان عنده مكتبًا صغيرًا للمقاولات والتشطيبات، وكان يبلغ من العمر ٣٣

سنة، كنا نراه دائمًا رجلًا جادًا لا يمزح أو يضحك، ولم يقل يومًا كلامًا جميلًا لأحد، كان شـــديدًا معنا، لكنه كان يحبنا كثيرًا ويخاف علينا ويقلق جدًا عندما نخرج لمكانٍ ما أنا أو أي أحد من أفراد العائلة، ويبقى على تواصل إلى أن نعود مهما تأخرنا عليه بالوقت الكثير، لكنه لم يكن يومًا يعبر لنا عن حبه، وكنا كثيرًا ما يحدث بيننا ســوء تفاهم والكثير من الخلافات والمشــاكل بســبب عقليته وعصــبيته، كان متزوجًا ولديهِ ثلاثة أولاد.

ثم شــقيقتي "أميرة"؛ هي أكبر من "طاهر" لكن نحن طبعًا أن نأتي على ذِكر الرجال أولًا، كانت تبلغ من العمر نحو ٣٥ ســنة وكانت متزوجة، و أيضًــا لديها أربعة أولاد، و أيضًــا كانت طيبة القلب ومثيرة الر أفة والتعاطف بســبب ملامحها البريئة وصــوتها الرقيق، وكانت تحب إكرام الضيف، وتأتي لهُ بأجمل ما عندها

من الكلام والحكايات، وتصـــنع لهُ ألذ ما يتمنى، لكن أم زوجها كانت شـــر الحماة؛ دائمًا ما تعكر عيشـــها، وتخلق لها المشاكل والمصائب من اللا شيء دون وجود أســـبابٍ لهذا الفعل، ودائمًا ما كان ينشـــب بينهما الشجار؛ فقد كانوا يقطنون في مبنى سكني واحد.

و"فـارس"؛ كان يبلغ من العمر نحو ٢٣ عـامًـا، وكان يعمل مع أبي في مصـــنع الدهانات، ولديهِ قلب طيب وضـحكة جميلة ويحب الضـحك كثيرًا والتسـكع من مكان لمكان ومحبوب جدًا عند الجميع.

ثم تأتي "أمل"؛ هي أصـغر مني بسـنة واحدة، لكن هذه المسـكينة تزوجت وعمرها ١٥ سـنة، ظُلمت كثيرًا بهذا الزواج، وتشـــعر بعد أن تزوجت بأنها أصـــبحت تبلغ المئة عام، وكانت تحب المرح والضحك كثيرًا، لكن بعد الزواج انقلب حالها تمامًا بسـبب سـوء المعاملة التي عاملها بها زوجها ووالدته، فكانت لا تضحك إلا خلال

زياراتها المحدودة لنا، وكأن السعادة لم تكتب لها خارج جدران منزلنا، ويرجع السبب لمرارة ما كانت تعيشه عند زوجها الذي يفترض أن يكون خير الوصي والصاحب لها.

أخيرًا "حمزة"؛ كان بكلية الهندسة، وكان مدللًا من العائلة ومن الجيران جمعيهم تقريبًا؛ لأنه كان يُعرف بخفة دمه و أناقته ودلاله، وبالطبع يحب المرح والبقاء خارج المنزل لوقتٍ طويل، فكان دائمًا يتجادل مع أمي و أبي حيال عدم منعهِ من الخروج متى ما أراد.

- قلتِ أن أخاكِ "حمزة" كان يخرج معكم أيضًا وليس فقط مع أصدقائه؟

- نعم، "حمزة"؛ الفتى المدلل للعائلة كما ذكرت لك، بالإضافة إلى أنه يصغرني بثلاث سنوات، فلم يرفض لهُ أحدٌ منا أي طلب، وكان دائمًا يأتي بأصحابهِ أو يشاركني وأصدقائي، وهو مع ذلك كان مجتهدًا جدًا في

دراســـته؛ لذلك كان يحصـــل دائمًا على كلّ ما يريد ويرغب.

- هل كانَ لديكِ علاقةٌ غرامية في الجامعة أو غيرها؟ بكل صراحة.

ابتسامة يتخللها الخجل الشديد:

- لقد كُنتُ أخاف من الخوض في العلاقات الغرامية بســـبب ما كُنت أراه من نتائج ســـلبية للعلاقات التي كان يخوضـــها أصـــدقائي، وكيف أن تلك العلاقات معظمها انتهت بطرقٍ محزنةٍ جدًا وتركت في نفوســـهم آثارها الحزينة وربما حتى آخر يوم في حياتهم،

لكن ذات مرة استوقفني شابٌ؛ كانت علامات الإصرار ظـاهرةً على وجهـه للحصـــول على بعض من وقتي، واحترامًـا لتلـك الرغبـة الكبيرة التي قرأتُهـا في عينيـهِ قلـتُ لـهُ غير معترضـــة: تفضـــل تحدث. فقـال: "لن أستغرق من وقتك أكثر من دقيقة واحدة فقط."

قلت له: تفضل، أنا أسمعك.

قال لي: "أنا معجب جدًا بك وبجمالك، وبقرائتي لتفاصيلك، وتحليلي لشخصيتك، وبكل صراحة؛ عازم على الارتباط الحقيقي معك، و أيضًا أتقدم بشكل رسمي وأخطبك."

لكنني دون تردد قلت له: آسفة جدًا، لكني لا أفكر أبدًا في الارتباط، و أفضل التركيزعلى مستقبلي ودراستي الجامعية.

وتركته ومضيت؛ فلقد كنت أرفض الكلام في هذا الشأن مع أنّ أختي الصغرى كانت قد تزوجت قبلي لأنها لم تكن ترغب في دخول الجامعة، وكانت أمي تتحدث إلي كثيرًا في هذا الموضوع؛ فلقد تقدم إلي الكثيرمن الرجال والعائلات الغنية، بالإضافة إلى أن اسم والدي كان له شأنًا كبيرًا في المدينة، لكنني كنت أقابل تلك العروض بالرفض دائمًا.

- ولمَ الرفض المستمر؟! هل كنت تنتظرين شخصًا معينًا؟

ضحكة ساخرة:

- لا، على الإطلاق، لكنني فعلًا كان همي الوحيد أن أنهي دراستي الجامعية وأعمل في بنك أو شركة، لأني كنت أحب الخروج والتجول كثيرًا على حريتي، وبالفعل في السنة الثانية من الجامعة كنت أذهب للمصنع الذي يمتلكه والدي وأتابع العمل والحسابات والخطط التسويقية وهكذا؛ لأن "حمزة" هو الآخر كان قد دخل كُلْيَة الهندسة، كنا فرحين جدًا بتفوقه، وكان يرفض مساعدة أبي في المصنع، ويقول أنا الآن مهندس، لكن "فارس" "وطاهر" أخي الأكبر كانا دائمًا بجانب أبي في العمل ولم يتركاه أبدًا، واستمر الوضع هكذا حتى تخرجت من الجامعة في نهاية عام ٢٠١٠.

تخرجت بتقدير جيد جدًا، وكنت سعيدة جدًا، وكما أخبرتك سابقًا أن أختي الصغرى تزوجت وهي صغيرة ولم تكن موفقة في زواجها، الأمر الذي لم يكن محببًا إلي، وبالطبع أول شيء حدث بعد جِلسة الفرحة بالنجاح كان أن فتحت أمي موضوع الزواج، قالت: "حان وقت الفرح بكِ وبزواجك."

لكن أنا قلت: أحب أن أركز أكثر على مستقبلي، وأحصل على وظيفة أختبر بواسطتها نفسي وشخصيتي، ويمكن أخيرًا أن أفكر في الزواج.

وبعد أن سمعت مني هذا الكلام غضبت جدًا، وتحول الفرح إلى حزن، غضبت والدتي مني، وغضبت أنا من ردة فعلها، لكن أبي رجل حكيم جدًا، وقتها حسم المجادلات وقال: "كل شيء سيأتي في ميعاده، لا تستبقا الأحداث، فلنفكر في الذي نحن فيه الآن فقط."

و أنا بالفعل كنت أعلم أنه قد حان وقتي للزواج؛ لأن أخي "طاهر" تزوج، وكان يسكن ببيت في نفس حارتنا و أنجبت زوجته أيضًا، وأختي الكبيرة تزوجت من رجل كان عنده متجرًا كبيرًا في مدينتنا، وأختي الصغيرة تزوجت وكنت أرفض أنها تتزوج صغيرة لكن هي وأمي كانتا مقتنعتين، وبالفعل تزوَّجت، و"حمزة" كان في الجامعة فضلًا عن أنه لا يرغب في الزواج المبكر، وكان يحب السفر وكان يسافر تركيا في الإجازات؛ فبعد أن دخل كُلْيَة الهندسة لم يستطع أحد أن يرد له طلب، وكانت أمي تقول: "إذا كنت مُصِرًا على السفر فاذهب إلى تركيا، لا أستطيع تقبل فكرة سفرك إلى بلادٍ غيرها؛ لأن لنا أهل فيها يرعونك." وذلك لأن أخوة أمي كانوا يعيشون في تركيا، فكانت أمي تفضلها وجهة لسفره لكي يرتاح فؤادها بأن له هناك من يتفقدون أحواله ويساعدونه عند أي مأزق،

والأهم من ذلك ينقلون لنا أخباره.

- كيف كان الأمر معكِ بعد التخرج؟

- أصـــررت على رأيي وخرجـت أبحـث عن عمـل في المدارس والبنوك والشركات، حتى وجدت فرصة عمل تدريس في مدرســـة في أحد الأحياء المجاورة لمنطقتنا، والحمـد لله و افق أبي بـالرغْم من أنـه قـال لي: "نحن لســـنا بحاجة إلى عائد هذا، و أيضًـــا التدريس عمل مُجهد جدًا ومستنزف للوقت والطاقة."

لكني كنـت أصـــر أن أعمـل وأختبر تلـك المشـــاعر والالتزامات تجاه المهنة وطلبة العلم.

وبالفعل و افق أبي وأمي، وكنت أذهب بالميني باص في الصباح وأعود في الأتوبيس بعد الظهر.

- حـدثيني عن مـدينـة "دير الزور"، عن المعـالم التي كانت فيها والأشياء المميزة والجميلة بها؟

نَبْذَة مختصرة عن "دير الزور"

اشتهرت المدينة بأصولها الحضارية وتاريخها، بالإضافة إلى الزراعة. تعتبر محافظة "دير الزور" من أهم المراكز الأثرية في سوريا والشرق، ومن أوائل الحضارات التي قامت في المنطقة، حيث يرجح المختصون ابتكار الزراعة من آلاف السنين بشكلها البدائي في تلك المنطقة وما جاورها من سوريا قبل ١٢ ألف عام.

وجد فيها أيضًا أثر لتجمعات بشرية قديمة ترجع لمرحلة ثقافات ما قبل الحضارة، وفيها تم تطوير نظام المدن وتخطيطها في الحضارات السورية القديمة.

وفي العصر الحديث احتلها الفرنسيون عام ١٩٢١م عند دخولهم سوريا وجعلوها مقرًا لحاميةٍ عسكرية كبيرة على الفرات كجزءٍ من سوريا المرسومة حسب اتفاقية.

وفي عام ١٩٤٦م صارت جزءًا من الدولة السورية المستقلة، وتبلغ مساحتها حوالي ٣٣,٠٦ ألف كم، تشغل ١٧,٩٪ من مساحة البلاد لتكون هي الثانية بعد محافظة حمص.

على مسافة ٤٠ كم من مركز المحافظة تقع مدينة "البصرة"؛ وهي أكبر تل أثري يعود للعصر الروماني والإغريقي، وتقع بين بلدتي الميادين والبوكمال، آثار وأطلال حضارة دورا أوربس على ضفاف نهر الفرات وتسمى "صالحية الفرات"، التي تضم آثارًا غنيةً تعود لعصور اليونان والرومان والفرس والتمارين، وكذلك في مدينة "القورية" آثار النواعير على نهر الفرات، وهي من العصر الروماني بالإضافة إلى منارة وعين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

وتحتضن "دير الزور" مُتحفًا ضخمًا هو الأكبر في شرق سوريا، يضم ما يقارب من ٢٥ ألف قطعةٍ أثرية

بأحجامها الطبيعية، بالإضافة إلى التماثيل والمحتويات والنقوش والهياكل العظمية، والقطع الأثرية الفخارية والأواني الزجاجية المتنوعة وغيرها.

يعتمد اقتصاد "دير الزور" على الزراعة والمحاصيل الزراعية كالقمح والقطن والسمسم والخضار، وتنتشر بطول المحافظة الكثير من الزراعات المهمة إضافةً إلى الثروة الحيوانية، كما يوجد فيها العديد من المنشآت الصناعية والمعامل، وفيها مواقعٌ للتعدين وصخورٌ ملحية يستخرج منها الملح الصخري، وتقوم أيضًا على صناعات مثل النسيج وقطع الغيار والسجاد والصناعات التحويلية وغيرها.

ويوجد فيها مطار إقليمي هو مطار "دير الزور"، ومحطة قطار للركاب والشحن تربط المحافظة بكافة مناطق سوريا.

وفي المدينة مقر جامعة الفرات وجامعة الجزيرة

الخاصة ومعاهد فنية ومهنية متخصصة.

كل هذا كان قبل الأحداث، وأكثر من هذا هو المشاعر والألفة بين الناس التي كانت تزيد البهجة والسعادة بينهم، وهذا يُعد قليلًا مما كان يوجد في "دير الزور".

بعد هذا الحديث الذي استغرق أكثر من ثلاث ساعات، بدأ الزوج ينظر إلى الساعة، وارتسمت ابتسامةٌ أخرى على وجه الزوجة وقالت بصوت هادئ: أنا آسفة، أرهقتك بالحديث!

- ماذا تقولين؟ كنت سعيد جدًا، وسنكمل الحكاية حتى أعرف كل تفاصيل حياتك، لكن نحن اتفقنا على ساعتين فقط.

بعد هذه الجملة اندهشت الزوجة، ولم تقدر على إيقاف الضحك لخفة دم زوجها.

- حسنًا إذًا، اخصم ساعة من حوار الغد.

جعل ظهره يستقر لنهاية الكرسي ورفع قدمه اليمنى على اليسرى، ونظر نظرة بها نوع من أنواع الكبر مثل نظرات المتفاخرين بأنفسهم.

- لا، أنا الذي أقرر فقط، أنا هنا رجل وقائد البيت!

الضحكة لم تعد تفارق الزوجة من تعليقات وردود

زوجها المضحكة.

- فما هو قرارك سيادة القائد؟

- من الغد وصاعدًا الحديث سيستمر إلى ثلاث ساعات، لم أكتف بساعتين فقط من معرفة تاريخ بطلتي المشرق؛ لا بد أن أتعلم منك السعادة والبطولة والروح الجميلة يا جنة دنيتي.

الخجل والخدود الحمراء يظهران من جديد، وبصوتٍ رقيق جدًا ورأسٍ منحنية للأسفل: هذا الكلام كثير جدًا عليَّ.

كتم "معتصم" أنفاسه وحرَّك رأسه ثم قال: إلى النوم الآن، وغدًا لنا في الحديث بقية...

لكن لم يكمل الجملة؛ صوت الفاتنة الصغير يخرج من غرفتها التي تبعد بضعة أمتارٍ عن الصالة، وعندما سمع الصوت قامت الزوجة بالهرولة إلى الغرفة للاطمئنان على صاحبة الصراخ المدوي في أرجاء

البيت، أخذتها من سـريرها وحملتها وقرَّرت الفاتنة الصـغيرة أن تقوم أمها المناضـلة بالتجول سـيرًا في جميع أركان البيت لمحاولة إخماد لهيب الصراخ الذي يخرج من فم "آفين" التي تحولت من فاتنةٍ إلى فَتْحَة لهب! ربما يكون هذا إثر كابوسٍ تسـلل إلى نومها أو بسبب انعزال الأبُّ والأم عنها وتجاهلها.

وسرعان ما أظهر الزوج انسحابه من المعركة: زوجتي العزيزة، سأذهب للنوم؛ لأنَّ الساعة تخطت العاشرة مساءً، ويجب الاستيقاظ مبكرًا للذهاب للعمل، أعلم أنكِ لستِ بحاجة إلي الآن و أنك تكتفين بابنتك.

نظرت إليه والغيظ يملأ وجهها: اذهب الآن، اتركنا وشأننا!

- سأذهب الآن؛ أخشى أن تقذفيني بأي شيء أمامك.

ضحكت الزوجة بالرغم من غضبها لبكاء طفلتها وبسبب تعليقات "معتصم"، ولكن عند دخول الزوج

إلى غرفة نومه رجعت الجميلة الصغيرة إلى الهدوء الصامت، كأنها تغار من انفراد الأبُّ بزوجته، وتقول في نفسها: "أنا أيضًا أحتاج أمي العزيزة على انفراد".

واستمرت السهرة الصامتة إلى الساعة الثانية والنصف صباحًا قبل أذانَ الفجر، الذي سيرج كل ضواحي تركيا قريبًا.

أشرقت الشمس و أنيرت الغرف بنور ربِّ الكون، والجفون تتحرك وتُفتح أبواب العيون على نور رب العالمين، نظر الزوج في ساعته فوجد الساعة اقتربت من السابعة صباحًا، ونظر إلى الجهة الأخرى إلى زوجته وقال بصوتٍ خافت: بالتأكيد يا زوجتي قضيتِ الليل كله بجانب أميرتنا الجميلة فلا داعي لإزعاجك.

اقتربت الساعة من العاشرة صباحًا، وقدما الملكة الصغيرة تتحركان ببطءٍ تجاه وجه الأم المُتعبة من سهرة الأمس، لكنها سرعان ما استفاقت من نومها.

- أنتِ استيقظتِ؟! هيا أطعمك من دون بكاء.

تناولت الصغيرة ما تيسَّر لها من حليب أمها وغرقت في نومٍ عميق، وبدأ يوم الأم بالروتين اليومي من نظافة وطهي ومكالمات الأقارب والأحبة.

- السلام عليكم أمي.

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، كيف حالك يا "إسراء"؟

- بخير يا أمي الحمد لله، كيف صحتك وصحة أبي وأخوتي؟

- جميعهم بخير الحمد لله، ذهب الجميع إلى عمله، وبقيت أنا وزوجة أخيكِ فارس في البيت، و أبوكِ خرج إلى المقهى.

- اشتقت إليكم كثيرًا، أنتظر يوم الجمعة الذي أقضيه معكم.

- ونحن أيضًا اشتقنا إليك وإلى صغيرتنا الجميلة،

كيف حالها؟

- ترهقني كثيرًا يا أمي بالسهر والبكاء.

- أعانك الله، كل الأطفال هكذا، سأنتظر يوم الجمعة نقضيه معًا، تابعي عمل المنزل قبل أن يعود "معتصم" من عمله.

- حسنًا أمي، أبلغي سلامي لكل أخوتي.

- سلام، الله معك.

- سلام، الله معكم.

رائحة الطعام تفوح في كل أنحاء البيت، والجميلة الصغيرة أخذت نصيبها من طعام أمها و انغرست في نوم النهار حتى تستعد للاستفاقةٍ طيلة الليل، والساعة اقتربت من الثالثة بعد الظهر ميعاد رجوع الزوج، وبالفعل سماع صوت فتح الباب يدوي في أنحاء الشُّقَّة أيضًا مثل رائحة الطعام، والزوجة تسرع مهرولةً نحو باب الشُّقَّة لاستقبال الزوج وأخذ

قبلة الرجوع، ومحاولة أخذ قبلة الصباح التي حرمتها منها صغيرتها منذ وصولها للدنيا، بإحساسٍ راقٍ وهادئ تقابل الزوجان، وكلٌّ منهما يفتح ذراعيه للآخر و ابتسامةٌ تملأ الوجوه والقلوب وبالفعل نفَّذا الوعد.

- حمدًا لله على سلامتك يا حبيبي.

- سلمكِ الله يا غالية، أحضري الطعام سريعًا لأنني مِتُّ جوعًا.

بابتسامةٍ أظهرت بياض الأسنان:

- أوامرك يا قائد، خلال عشر دقائق سينفذ أمرك.

- سأبدل ملابسي حتى تنفذي الأمر.

تجمَّع الزوجان على الطعام، ويزيد حلاوة الطعام جمال الروح المنتشرة في المكان، وبعد انتهاء مائدة الطعام، قام الزوج لأداء فريضة العصر، وتبعته الزوجة بإخلاء مائدة الطعام وما عليها إلى المطبخ، وبعد نظافة الأطباق خرجت هي الأخرى لأداء فريضة

العصر، ومن ثم انتهاء الزوج من الصلاة والدخول إلى غرفة الملكة الصغيرة لإعطائها نصيبها من الحنان بقبلةٍ على الخد الأيمن ودعوة بأن يبارك الله له فيها، ثمَّ الذهاب إلى المطبخ لإحضار الشاي والحلويات الشامية لبدء الاجتماع اليومي المغلق الذي تم الاتفاق عليه البارحة، لكن في خلال تحضير الحلويات جاء اتصال:

- السلام عليكم أمي العزيزة.

- عليكم السلام "معتصم".

- كيف حالك وحال أخوتي؟

- كلهم بخير، كيف صحتك أنت وصحة ابنتك؟

- الحمد لله بخير.

- سنرى ابنتك يوم الجمعة أم ستأخذها أمها معها عند أهلها؟

- سنمر عليكم أولًا ثم على بيت أهلها وأعود إليكم مرة

أخرى.

- حسنًا، في انتظاركم.

- أبلغي سلامي لأبى وأخوتي.

- سلمك الله، نلتقي الجمعة، مع السلامة.

- مع السلامة.

وقف الزوج يفكر في لهجة أمه التي ملأها العنف، لكن سرعان ما تغير الحال بدخول الزوجة بالابتسامة:

- هذه مكالمة عمل؟

- لا، إنها أمي تطمئن علينا.

- الله يسلمها من كل شر.

- حضري أنتِ الحلوى و أنا سأسبقك بالشاي إلى الصالة.

- أنا خلفك.

- أكملي ما بدأناه بالأمس.

ابتسامة يدخل فيها شرود الماضي ونظرات العين توجهت أعلى من مستوى الكرسي الذي يجلس عليه الزوج:

- نعم سيدي، مثلما قلت لك أمسِ، مدينتنا كانت جميلة لما بها من مناطق و آثار، و أيضًا الناس كانوا طيبين جدًا وحنونين على بعضهم البعض، واستمر الحال على أني أذهب إلى المدرسة التي أعمل بها كل يوم بأوتوبيس يصل إلى منطقة قريبة من منطقتنا، وكنت مستمتعة جدًا لأني تعرفت على أصدقاء كُثر مدرسين أو حتى طلاب، كنت سعيدة بعملي كثيرًا، و أيضًا بالروح النقية بيني وبين الطلاب، وكنا في وقت الفراغ نجلس مع بعضنا نتحدث ونحضِر طعامًا ومشروبات معنا، والوضع في البيت أيضًا كان على ما يرام، أخوتي الشباب مع أبي يساعدونه بالطبع عدا المهندس "حمزة" المدلل الذي يذهب إلى الجامعة

بسيارة أبي، ويحصل على كلّ ما يشتهي، ويرتدي أحلى وأغلى الثياب، ما كان أحد في نزاهته، واستمر الحال هكذا، لكن كان هناك حديثًا لا ينتهي بيني وبين أمي عن موضوع الزواج من وقت ما أنهيت دراستي، ويتجدد الكلام في هذا الحديث من وقت للثاني، وندخل في صدام وتعود الأمور إلى وضعها الصحيح بتدخُّل أبي أو أحد أخوتي، لكن أمي كانت تصرّ وتقول: "أخواتك البنات تزوجن و أيضًا الشباب الأكبر منك تزوجوا، أنتِ التي لا توافقين على أي عريس!"

كان يتقدم لخطبتي الكثير والكثير، لكني كنت لا أوافق، مع أن الكثير منهم كانوا لا يُرْفَضُون وكانوا من عائلات كبيرة؛ لأن عائلتي أيضًا كبيرة و أبي محبوب بين الناس، وكانت أمي تقلق كثيرًا من هذا الرفض المستمر، حتى أنها ذهبت إلى شيوخ في البلد ومنهم من قال لها:

"إن ابنتك محسودة، فاقرأي عليها الرقية الشرعية."

لكن أنا كنت أرفض و أقول لها: هذا نصيب، ونصيبي لم يأت بعد.

كانت تغضب كثيرًا من كلامي ورفضي المستمر، وفي هذا الوقت كانت الدنيا جميلة جدًا عدا موضوع الزواج هذا، وكنت أتوقع أن هذا أكبر مشكلة في حياتي، و أنه عندما أتزوج ستكون حياتي لا ينقصها شيء.

ابتسامة ساخرة من الزوج الذي يستمع بشغف لقصة نصفه الثاني:

- أتقصدين أنكِ بعدما تزوجتِني ما زال عندك مشكلات؟!

ضحكة ساخرة مع تغطية الفم باليد اليمنى لمحاولة حجب بعض أصوات الضحكات: ما كنت أتوقع يومًا ولا حتى يخطر بخيالي أنه يحدث ما حدث، حتى بعد ما

حدث معنا ما كنت أتصــور أني أظل حية، وعندما تخيلت أني أظل حية كان كل طموحي أن أحيا في أي مكان بعيد عن القصف والضرب والصراع مع أهلي لا أكثر، وما كنت أتوقع كرم ولطف الله.

- حسنًا، أكملي.

- ظل الوضــع على ما هو عليه حتى ســمعنا في يوم بخروج تجمُّعات من الناس بمحافظة "الســويداء" يطالبون بوظائف للشــباب و أيضًــا تخفيض أســعار الســلع، وكان بين الناس طفل صــغير بعمر ١٤ ســنة كتب على جدران الحيطان، وهذه المحافظة تعدّ محافظة عشــائر ولهم قيمتهم واعتبارهم بين الناس، والطفل عُرف من قِبل النظام، وتم القبض عليه، وسُجن وتعذب، ونزعوا أظفاريديه وقطعوا أعضاءه التناسلية، وهذا الخبر انتشــر في كل أنحاء وضــواحي سوريا، وفي معظم مناطق سوريا خرج الناس يطلبون

بالقصـــاص للطفل ومحاكمة المســؤول عن هذه المأســـاة، وقالوا أن الرئيس ســيخرج بخطاب على الشــعب وتفاءل الجميع، وقالوا بالتأكيد ســيكون بالخطاب قرارات مهمة من أجل راحة الناس والقصــاص للطفل و أيضًــا معاقبة المســؤولين عن الجريمة الوحشــية التي حدثت، لكن الخطاب جاء عكس كل التوقعات، وخرج الرئيس يقول: "إنه يوجد بيننا إرهابيون وجر اثيم دخلت سوريا"، و أيضًا يقول "سوف نقضي عليهم".

للأسف الوضع ازداد سوءًا، وظهر ناس فعلًا إرهابيين وخونة وعملاء في الأحداث، والخاســر كان الشــعب، المشــكلة أن محافظة "الســويداء" هذه تعدّ تجمعًا مفتوحًا، مدينة في غاية الجمال والروعة بالنســبة لما فيها من نظافة ومبانٍ حديثة...

- بالله كيف استطاعوا فعل كل هذا بطفل صغير لا

يفهم شيئًا عن الذي حدث؟!

- نقول هذا الذي حدث.

- ممكن أن نقول من حكايتك هذه أن الذي حدث مع الطفل يعدّ بداية الشرارة للأحداث في "سوريا"؟

- بالتأكيد، إلى حد بعيد جدًا، لكن ما كان في مخيلة أحد أن تصل الأحداث لهذا.

- "السويداء" كانت منطقة عادية مثل "دير الزور"؟

نَبْذَة مختصرة عن "السويداء"

واحدة من المحافظات السورية؛ تقع في الجنوب الشرقي من دمشق وتحدها من الشمال، ودرعا من الغرب، والبادية السورية والصفا من الشرق، والأردن من الجنوب.

تبلغ مساحتها حوالي ٦٥٥٠ كم مربع، المناخ معتدلٌ جبليٌ بارد، وتتساقط بها الثلوج بحيث تصل في بعض المناطق إلى ارتفاعاتٍ كبيرة لتغطي المدن والبلدات، وفي الصيف المناخ معتدلٌ منعش، وتتراوح نسبة الأمطار السنوية فيها ما بين ٣٥٠ مم و١٠٠٠ مم في المناطق الجبلية، صخور المحافظة بركانيةٌ وتربتها رسوبية، وترتفع عن سطح البحر ١١٠٠ م.

نَبْذَة عن تاريخ "السويداء" القديم:

تعد "السويداء" مُتحفًا مفتوحًا للآثار والأماكن الأثرية التي تعود إلى آلاف السنين، وعثر علماء الآثار

في معظم أرجاء المحافظة على أدواتٍ منحوتة كان يستخدمها إنسان ما قبل التاريخ، وفي ربوع المحافظة توجد آثارٌ خلفها الآراميون والصفويون والأنباط الذين دخولها بعد انتصارهم على السلوقيين عام ٨٨ ق.م.

وتضم المحافظة الكثير من الآثار التي تعود إلى العصر اليوناني والروماني في شهبا؛ قنوات المزرعة شرقًا، قرية بريكة، نجران، سيع، سليم، عريقا، داما، ذكير، أم الزيتون، ملح، عمرة، المجدل، وغيرها من البلدات والمواقع الأثرية.

ومثلما جذبت المحافظة أنظار الخلفاء والزعماء هزَّ جمال طبيعتها مشاعر العديد من الشعراء العرب مثل: امرؤ القيس، الشريف الرضي، لبيد بن ربيعة وغيرهم، فالشاعر العربي جرير تعلق بجبل الريان حبًّا وذكره وحنَّ إليه قائلًا:

يا حبذا جبل الريان من جبل

وحبذا ساكن الريان من كانا

وحبذا نفحاتٌ من يمانية

تأتيك من قبل الريان أحيانًا

هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم

عند الصفاة التي شرقي حور انا

نَبْذَة عن "السويداء" الحديثة:

تطورت المحافظة بشكلٍ ملحوظ في العقود الأخيرة، وتعمقت في مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، تعدّ "السويداء" مدينةً عصرية راقية بما تحتوي على مبانٍ أنيقة وشوارع وأسواق رائعة؛ حيث تنتشر في المدينة والبلدات المجاورة أحدث وأرقى المباني السكنية، ويوجد بالمحافظة مجالات مختلفة مثل: الزراعة والتجارة والصناعة والسياحة الطبيعية. ومن المواقع

السياحية في المحافظة: مُتحف السويداء، المسرح الروماني، البوابات، أقواس النصر، الكنيسة البيزنطية، معبد الشمس، والغابات الطبيعية، وأهم لوحات الفسيفساء الرائعة، وتوجد منطقة "ظهر الجبل" حيث تنتشر فوق أعلى القمم الجبلية في المحافظة كروم العنب الشهيرة وبساتين التفاح وأشجار الفاكهة والينابيع، إضافةً لوجود بحيرة سد الروم التي تحيط بها الجبال.

وبعد سرد من الزوجة عن جمال مدينة السويداء تابعت الحديث:

- بعد حوالي ثلاثة أشهر من حادثة الطفل، ويوم بعد الثاني الفوضى تزداد وسيطرة الأمن تقل بسبب خروج الناس في مسيرات تعبر فيها عن الغضب الذي بداخلها من هذه الأوضاع، في هذا الوقت اقترحت عليَّ ابنة خالي أن نذهب لأداء مناسك العمرة، كانت فكرة جيدة جدًا بالرغْم من الأوضاع السيئة، لكن كنت بحاجة إليها، وبالفعل قدَّر ربي أن نذهب أنا و ابنة خالي.

- ذهبنا في هذه الرحلة وكانت أجمل أيام قضيتها في حياتي؛ متعة النظر إلى الكعبة المشرفة، وأجمل شيء الراحة النفسية والخشوع في العبادة، كنت أشعر أني أقضي أسعد الأوقات واللحظات في الحرم المكي والمدينة المنورة، لكن بمجرد ما أتذكر أهلي بسوريا

وظروف البلد التي تزداد تدهورًا قلبي يقلق كثيرًا، كنت أتصل وأطمئن عليهم، ودائمًا كانوا يقولون: "نحن بخير، انتبهي لنفسك، وادعي لنا كثيرًا ولسوريا أن يرفع ربنا البلاء عنا".

كنت مستمتعة جدًا بالأجواء، كنت أشعر أن هذه الفرصة حقًا جاءت بوقتها لتجديد النشاط، لكن عندما يظهر أمامي أي حدث بسوريا عقلي لا يكف عن التفكير في أهلي وحالهم، مع أن الوضع كان بخير ولا يوجد غير خروج الناس ليلًا في مسيرات تعبر عن شعورها ولا يحدث شيئًا كبيرًا.

وفي يوم من الأيام اتصلت بأهلي أطمئن عليهم كعادتي كل مدّة، وفي هذه المكالمة قالت أختي أن الشباب في "دير الزور" أسقطوا تمثال أخِ الرئيس من الميدان وكسروه، وبسبب هذه الحادثة اعتقل النظام مجموعة من الشباب، وشعر النظام بالخوف على

تمثال أبِ الرئيس أن يحدث فيه ما حدث في تمثال ابنه قبل أن تنزله الناس وتكسره.

- كم يوم استغرقت رحلة العمرة؟

- ٢٥ يومًا، قبل أن أنزل بيوم اتصلت بأبي وأخبرته أني سأصل إلى سوريا غدًا، ورجعت بفضل الله في اليوم التالي وكان يوم خميس، وصلت البيت في الساعة الخامسة مساءً وكان في انتظاري صديقتي وأخوتي، وكان أخوتي يستقبلونني بالزغاريد والأغاني، فصرخت أمي فيهم بصوت عالٍ وقالت: "الحارة حزينة، لا تصدروا صوتًا!"

سألت: لماذا حزينة؟ ما الذي حدث؟

قالوا: منذ أسبوع أحضروا شهيدين إلى الحارة، قُتلا بالسجون في أثناء اعتقالهم.

جلست أحكي مع أخوتي عن رحلتي حتى الساعة العاشرة تقريبًا، و أنا جالسة سمعت صوت أَغَانٍ

وزمامير، وأخواتي قالوا: "الآن ستمر المظاهرات."

قلت لهم: كيف تمر المظاهرات هكذا، والأمن سيتركهم؟

قالوا: "لا أحد من الأمن سيقول لهم شيئًا."

خرجنا أمام بيتنا، وبالفعل مر الشباب أمام أعيننا رافعين الشعارات وأصواتهم ترج الأرض، والأعداد كانت كبيرة وأيضًا يهتفون بإسقاط النظام، لم يقترب عليهم أحد من رجال الأمن، مع أن بيتنا واقع بين ثلاثة أفرع للأمن؛ فرع للشرطة وفرع للأمن العسكري وأيضًا فرع للهجرة والجوازات، اسم منطقتنا "الجبيلة"، وكانت المظاهرات تمر من جانب كل هذه الفروع ويذهبون إلى ميدان السبع بحيرات يجتمعون، والناس كانت تذهب وتؤيد أولادها؛ تشاهد وتغني مع بعضهم البعض، والجميع ما كان ليُصدق الذي يحدث كأنه شيء مثل الخيال، وفي نفس الوقت كان

في آخر شارع الميدان مسيرات تأييد للنظام، وفيها أَغَانٍ ورقص أيضًا.

رجعنا إلى البيت وعلى وجهي التعب من رحلة السفر، ومن المناظر التي لم أتوقع أن تحدث في يوم من الأيام، وكان عندي الكثير من التساؤلات والاستغراب نحو الذي يحدث في شوارع سوريا، فسألت أمي: منذ متى وهم يتظاهرون؟

قالت أمي: "١٥ يومًا، يخرجون كل ليلة الساعة ١٠ مساءً، وكل جمعة بعد الصلاة تطلع مظاهرات يسمونها "مليونية"."

سألتها وكلي شغف: هذا يعنى أنه سيكون هناك مظاهرات "مليونية" غدًا؟

عينا "معتصم" يبدو عليهما الإرهاق:

- عذرًا للمقاطعة، لكن أشعر بصداع وأحتاج أن أستريح ساعة؛ لأني سأذهب عند أختي، فهي تريد

الـذهـاب إلى "أنطـاكيـا" لتجري فحوص على ابنهـا الصغير.

قلـب الزوجـة الطيـب شـــعر بتعـب الزوج، ولكن مع اختلاط إحســـاس الشـــعور بالتعب للزوج ومفاجأة الخروج ليلًا للسفر!

- لكن الوقت متأخر كثيرًا يا "معتصـــم" ولا ســـيما أن "أنطاكيا" بعيدة عنا مقدار ســـاعتين، لماذا لم تذهب فور رجوعك من عملك؟

- هذا الدكتور لا يعمل في عيادته الشـخصـية إلا ليلًا في الوقـت المتـأخر، و أيضًـــا بـالحجز، والحجز الـذي نحن قد حجزناه الساعة ١١ مساءً.

- لكن هكذا ستتأخر كثيرًا وسأقلق عليك.

- لا تقلقي، نحن معنا سيارة.

- ســـتتأخر إلى بعد منتصـــف الليل، ولديك عمل في الصباح، لكن في نفس الوقت لا يصح أن تترك أختك

و ابنها في هذه الظروف.

ارتسمت ابتسامة مشرقة على وجه الزوج الفخور بحكمة زوجته:

- أعرف أن قلبك حنون جدًا وتفهمين في الأصول.

- خذوا بالكم على أنفسكم جيدًا.

- إن شاء الله، ربنا يطمئن قلوبنا ونعود سالمين.

- ادخل استرح قليلًا و أنا سأحضر لك الملابس التي تذهب بها.

بعد ساعة أيقظت الطفلة والدها بصوت صراخها المعتاد، وبنفس روتين كل يوم؛ الأم تبدأ السهرةً بنغمات الصغيرة التي ترج أنحاء الشقَّة رأسًا على عقب، لكن في الأيام السابقة عندما كان يضع الزوج رأسه على الوسادة كان يخرج من كوكبنا إلى كوكبٍ آخر، أما اليوم فسيخرج من البيت للسفر مع ابن أخته، في كلتا الحالتين ستستمع الأم وحدها إلى

النغمات المعهودة كل يوم.

وبعد تجهيز نفسه للسفر أخذ قسطًا من اللعب والحب مع ابنته التي كان لها دورًا كبيرًا في إيقاظه لميعاد الطبيب.

- ستحتاجين طلبات للبيت أشتريها و أنا عائد؟

- أحتاج أن تأتي بالسلامة بإذن الله.

ابتسامة انشرح لها القلب والوجه من الزوج الذي شعر أنه أسعد رجل متزوج على وجه الأرض في هذه اللحظة، بدأ يفكر بالرغْم من أنها تحمل على عاتقها أعمال البيت طيلة النهار مع احتياجات ابنتنا والنظافة والأكل ومتطلبات البيت، وفي الليل السهر ولا تشعر بالراحة، ورغم كل هذا تصر على عدم إحساسي بالتقصير بمشاعرها الجميلة نحوي، حقًا أنا محظوظ جدًا لأني تزوجتها بالرغْم من رفض أهلي هذه الفكرة، وكل يوم أشعر أنَّ قراري كان صائبًا

تمامًا.

- أريد أن أقول لك شيئًا يفرحك.

- أنا فرحة بِك بالفعل.

ضحك ونظر إليها نظرةٍ رومانسية.

- غدًا إن شاء الله بعدما أعود من عملي سأوصلك إلى بيت أبيكِ لتقضين معهم الخميس والجمعة، و أنا أيضًا أذهب لأرى أمي وأخوتي، وآتي لآخذكما الجمعة بعد العشاء، ما رأيك؟

- بالطبع مسرورة جدًا، لا حرمني الله منك، هيا توكل على الله، و أيضًا أرسِل سلامي لأختك وطمئنِّي أولًا بأول، أنت تعرف أني لن أنام الآن وسأنتظرك.

-حسنًا سأطمئنك، لكن لو الجميلة الصغيرة نامت فالجميلة الكبيرة لا تقلق ولتأخذ قسطًا من الراحة وتنام.

- حسنًا يا غالي، أنت تأمر.

وبالفعل مرت ساعات الليل الهادئة على الزوجة بتصارع فكري وعصبي في انتظارزوجها وبكاء أميرتها الصغيرة، ساعات الليل تبطئ مروره لأدنى سرعة، وفجأة التليفون المحمول يطلق العِنان لقلقها، الزوجة في هرولة تتجه نحو التليفون.

- سلام عليكم.

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، كيف حالك وكيف حال "آفين"؟

- الحمد لله بخير، أنت كيف حالك؟ رجعتم إلى بيت أختك أم ما زلتم في أنطاكيا؟

- نحن في طريقنا للعودة والحمد لله الدكتور طمأننا على حالة "طاهر" ابن أختي وكتب له على أكثر من دواء، وربنا يرسل الشفاء من عنده.

- هذا جيد، إن شاء الله سيكون بصحة جيدة، على رسلكم و أنتم راجعون.

- تحت أمرك يا ست الكل، نامي أنتِ وارتاحي قليلًا.

- لا، ســـأنتظرك؛ لن أســـتطيع النوم دون أن أطمئن على وصولك.

- ربنا يبارك لي فيكِ ويحفظك.

في تمام الثالثة فجرًا وصـــل ""معتصـــم" إلى البيت ووجد زوجته قد غلبها النوم على الأريكة، وقدماها معلقتان بين الأرض وحافة الأريكة، ورغم أنها تغوص في النوم العميق فإن الابتسامة ما زالت مرتسمة على وجهها، رفع "معتصـــم" قدميها المعلقتين ودخل إلى غرفة النوم وخرج بغطاءٍ وضـــعه عليها لكي لا يقلقها من نومها، وفي الصباح الباكر هزَّ البيت صراخ الأميرة الصغيرة التي قد دق الجوع أمعاءها، استيقظت الأم وتوجهت مسرعةً نحوها وقامت بفعلها الطبيعي الذي أصبح عادةً يومية تجاه طفلتها.

وبعد رجوع معتصم من العمل اتفق الزوجان على

الذهاب إلى المتجر لشـــراء ما يلزم البيت من طلبات، ولا ســيما طلبات الطفلة والمطبخ، وفي وَسَــط الجولة نغمة هاتف "معتصــم" زادت من ضــوضــاء المكان، أخرج الهاتف:

- السلام عليكم، أمي الغالية كيف حالك؟

- عليكم السلام، الحمد لله الصحة بخير.

- أنا الآن في المتجر أنا و"إسراء"، وبمشيئة الله في خلال ساعة سأكون عندك.

- أحتاج طلبًا منك يا "معتصم".

- اؤمري يا أمي.

- أحتاج إلى ألفي ليرة.

- نعم يا أمي.

نظرت الزوجة إلى وجه زوجها الذي تغيرت ملامحه قليلًا.

- من المتصل؟

- أمي.

- بالتأكيد كانت تسأل متي تصل عندها.

- وشيئًا آخر، تحتاج إلى ألفي ليرة.

انصدعت الزوجة مما سمعت وتوجهت إلى الكاشير لدفع قيمة المشتريات، وهنا كانت الصدمة الأكبر، ما في جيب الزوج لا يكفي لدفع قيمة الفاتورة، وهنا أخرجت الزوجة من حافظتها الخاصة نقودًا وأكملت الفاتورة. الجدير بالذكر أنَّ الزوجة تعمل معلمة في إحدى المدارس الابتدائية، ولكنها في إجازة منذ مدّة ليست بالقصيرة وتتقاضى نصف الراتب نظرًا لظروفها، وبعد هذا الموقف الذي جعل "إسراء" تندهش وتعجز عن الكلام داخل المتجر ولكن لم تقدر على كتم ما بها كثيرًا، وفور خروجهم من المتجر:

- أنا في غاية الاندهاش مما تفعله والدتك، كل يومين تتصل وتطلب مالًا، مع أنها تتقاضى معاشًا شهريًا

ووالدك هو الآخر يتقاضى معاشًا، وفضلًا عن كل هذا هي تعلم أننا تحت ضغط أقساط الزواج التي لا تنتهي، و أيضًا مصاريفنا تزداد بسبب طلبات "آفين"، لماذا تصر على تجاهل عيشتنا وموقفنا الصعب من الضيق بسبب كثرة الديون علينا؟ وبالرغم من هذا لا تكل ولا تمل من مطالبة المال من الوقت للثاني!!

- أنا أقدروأعلم جيدًا ما تقولينه، لكن لا أستطيع أن أرفض طلباتها.

- و أنا أيضًا مسئولة منك، وطلباتي وطلبات ابنتي وبيتي من مسئولياتك وطلباتك، وأعتقد أنه لولا جزء من راتبي ما كنا قدرنا على إتمام شراء الطلبات.

حاول "معتصم" مقاطعتها بعصبيته وصوته العالي:

- يكفي يا "إسراء"، أنا لا أعرف كيف أتصرف، عقلي سيشت من كثرة التفكير.

- ممكن آخر تعقيب على ما يحدث؟ لماذا لا تشارك

أمك أخوتك في احتياجاتها بالرغْم من أنهم في وضع ميسر؟!

- "إسراء"، يكفي، هيا كي أوصلك عند أهلك.

لم تتركه "إسراء" يكمل جملته واستكملتها هي:

- أنا سأبقى معهم ليومين، ممكن؟

هو الآخر يتابع جملتها لكن يبدو عليه العصبية والحزن:

- كما يحلو لكِ يا "إسراء"، على راحتك، ستتركيني وحيدًا؟!

قال "معتصم" هذه الجملة في محاولة لكسب تعاطفها، لكن ما زال الحزن والغضب يسيطران عليها وعلى لهجة كلامها.

- ليس بالطبع، لا تترك أمك، ابقَ عندها يومين وبعدها تأتي لتأخذنا.

ابتسم الزوج بالرغْم من أنَّ ملامحه ما زالت يملأها

الحزن والإرهاق:

- نعم، افعلي ما يريحك.

"معتصم" أوصل "إسراء" إلى باب بيت عائلتها، الزوجة استُقبلت بالمرح، وفرحة الجميع بـ"آفين"، وبعدها ظهرت الملامح وبدأ الحديث عن الذي حدث في المتجر، لكن لم يطل الأمر كثيرًا وقطع حوار الزوجة وأهلها اتصال زوجها ليخبرها بوفاة أخت أمه، ويدعوها لتأتي لمواساة أمه في حزنها، كأن القدر يلاحقهما.

وبالفعل ذهبت "إسراء" وأمها لمواساة أم زوجها في حزنها، ولكن اللقاء لم يكن لقاء لمواساة وجبر خاطر بل انقلب لتوزيع ثروات الأبناء، بالرغْم من أنَّ الوقت لا يسمح بكلام من هذا القبيل، لكن أم "معتصم" تركت حزنها وراء ظهرها وتفاخرت بما يمتلكه أبناؤها من ثروات فقالت بعدما فتحت موضوعات الزواج:

"محمد" لديه شقَّة تمليك، و أيضًا له النصيب الأكبر في مكتب الاستيراد والتصدير، ونبحث له عن زوجة تركية أصيلة لتسانده في حياته، و أيضًا "طاهر" الابن الأكبر يمتلك جزءًا من المكتب، و أيضًا لديه بيت خاص به وبأبنائه، و أيضًا شريكٌ في مكتبٍ آخر في "أنطاكيا" هو وصديق له.

الحماة تحكى و"إسراء" تكاد تخرج عن صمتها بالصراخ لما تسمعه في وقتٍ ومكانٍ غير مناسبين لهذا الحديث، فضلًا عن ذلك أنَّ "إسراء" قد فهمت من هذا الحديث أنَّ زوجها يعدّ لا يملك شيئًا وكل ما يعمل به ملكٌ لغيره بالرغْم من أنه يعدّ الوحيد الذي يعاني من كثرة الديون ومنذ مدّة ليست بالقليلة. حاولت الأم الحكيمة أن تمارس دور التهدئة في الأزمة التي تشتعل بين ابنتها وأم "معتصم" وقالت: الله يزيدهم من فضله، نستأذن، والبقاء لله.

- لماذا تستعجلون؟ فالوقت ليس متأخرًا!

ردت أم "إسراء" بهدوء: البنت الصغيرة أكيد تبكي الآن من الجوع، "إسراء" ستذهب لتطعمها.

وبالفعل استطاعت أم "إسراء" إقناع أم "معتصم" أنَّ ميعاد اللقاء قد انتهى. الأم والابنة يسيران على الأقدام والصمت مخيمٌ على الطريق، وفور وصولهم للبيت في محاولةٍ لتهدئة "إسراء" قالت أمها: "إسراء"، لا تشغلي تفكيرك بالذي تحكيه أم "معتصم"، الأرزاق يقسمها الله سبحانه وتعالى.

نظرت "إسراء" إلى أمها وفي عينيها الدموع وفي قلبها الحزن:

- سمعتِ الذي قالته؟ هل الظروف كانت مناسبة لها لتحكي؟! وهل الذي تقوله فعلًا حق؟! أنا عقلي سينفجر من التفكير في أفعالها التي تفعلها معي!

الأم ما زالت تحاول تصبير ابنتها: لا يا "إسراء"، اهتمي

بابنتك وزوجك ولا تشغلي بالك بها!

لكن لم ترتح "إســـراء" من هذا التفكير إلا بعد معرفة حقيقته، فأتت الزوجة برقم هاتف لعم "معتصـــم"، وحكت له ما بدر من حماتها، لكن عم "معتصـم" يبدو أنه هو الآخر يتمتع بالحكمة والهدوء، وفي محاولة منه لتَفَـادَي من توتر الأوضـــاع قـال: تجـاهلي كلامهـا؛ ف"معتصـم" له نصـيبٌ من كل شيء، و"معتصـم" هو الأدرى والأعلم بعمـل المكتـب، وبـالتـأكيـد لـه الجزء الأكبر.

لكن من الواضــح أنَّ هـذا الكلام لم يقنع "إســـراء" فقالت: إذًا لماذا تطلب دومًا منه؟ فضـلًا عن أنها تعلم بظروفنا المالية الصـعبة بسـبب الأقسـاط الشـهرية ومصاريف البيت ومصاريفنا؟

العم مـا زال في دور المحـامي النشـــيط: حـاولي أن تتعايشـي دون أن يشـغلك إزعاجها؛ فهي مريضـة من

وقت موت ابنتها الصغيرة على يدها منذ أكثر من عشر سنوات، ومن وقتها وحالتها النفسية وعقلها في تقلبات مستمرة ولا تعرف ما تحتاجه.

لكن "إسراء" بعد كل هذه المبررات ما زالت العصبية تمتلكها تفكيرًا وصوتًا: لا، هي تعرف، كل شهر تتصل ب"معتصم" وتقول أنا أحتاج ألف ليرة والشهر الذي يليه ألفين، الذي يليه كذلك، ور اتبي ور اتب "معتصم" لا يتحمل كل هذا، و أنا نفسيتي تعبت كثيرًا من أفعالها.

لكن محاولات التهدئة مستمرة:

- لا تضغطين على نفسك، اتركيها يدبرها الله.

يبدو أنها اقتنعت أو تعبت من كثرة الجدال.

- نعم يا عمي، سأحاول، آسفة، أزعجتك بمشاكلي.

- لا تقولي هذا، أنتِ ابنتي، خذي بالك من نفسك.

- إن شاء الله، ربنا معك.

علم "معتصم" بالاتصال الذي تم بين "إسراء" وعمه، وكان في غاية القلق والغضب وعلى الفور اتصل ب"إسراء":

- أريد التحدث معكِ، سآتي لآخذك ونذهب إلى بيتنا.

- لا، أنا أريد البقاء يومين عند أبي.

- سنتكلم في موضوع مهم وبعدها افعلي الذي تريدينه.

- تمام، أنتظرك.

انتهى "معتصم" من عمله، وذهب وأخذ "إسراء" من عند أبيها، وتقريبًا لم يدخل البيت عند أبيها، من على الباب، ووصلا بيتهما لتبدأ مجادلة ستكون لها الكثير من المفاجآت.

- "إسراء"، أنا أعرف أنك تزعجك الأفعال الغريبة التي تصدر من أمي، و أيضًا يوجد كثير من الأفعال لا تعجبني، لكن اعرفي أيضًا أني لا أرفض لها طلبًا، لكن ما أحزنني أنك كسرتِ وعد أخذناه بعضنا على بعض.

اندهشت الزوجة من كلام زوجها الذي يشعرها بالذنب.

-أي وعد تتكلم عنه؟ ولماذا تتكلم معي على أني أنا التي أخطأت وعلي الحق؟

-الوعد هو عدم مشاركة أحد بالمشاكل الشخصية التي تخصنا، التي تعدّ جزءًا من حياتنا الشخصية التي لا يدركها ويحلها إلا نحن، وحكيت لك القصة الدالة على كلامي الذي حدث بين سيدنا محمد ﷺ وسيدنا علي -كرم الله وجهه-، لما شعر الرسول العظيم أنَّ سيدنا علي -كرم الله وجهه- جالس بالمسجد ولا يرجع للبيت بعد كل صلاة مثل السابق، ذهب إلى بيت علي وسأل ابنته: "هل يوجد خلاف بينك وبين علي؟" ردت على أبيها رسول الله ﷺ وقالت: "لا يوجد خلاف يا أبي، كل شيء على ما يرام".

لم يضغط عليها سيد الخلق وذهب للمسجد فوجد

عليًّا ما زال يجلس فسـألـه: "هل يوجد خلاف بينك وبين زوجتك؟"

فرد علي -رضـي الله عنـه- عليـه وقـال: "لا خلاف يـا رسـول الله".

فقال النبي ﷺ: "فهيا نذهب لبيتك".

فقال: "هيا يا رسـول الله".

دخل البيت وألقى السـلام على زوجته بوجهٍ بشـوش وكأنه لا يوجد شـيء فعلًا، فابتسـم رسـول الله وقال: "فـاطمـة أحـب إليَّ من علي، وعلي أعزُّ عنـدي من فاطمة".

بعدما سرد عليها "معتصم" القصة مرة أخرى ظهرت عليها علامات الخجل وقالت: أنا آسـفة، فهمت ما تقصد لكن أنا لم أقدر أن أكتم بداخلي وأسكت.

- اتفقنا في السـابق يا "إسـراء" أنَّ أي خلاف نتناقش فيه سـويًا قبل أن يعلم أحد به حتى وإن كان عمي،

حتى إن كان غاليًا عليَّ؛ فأكيد لا يوجد أغلى من رسول الله على وجه الأرض.

- أنا متأسفة، فعلًا أنا أخطأت عندما تحدثت مع عمك، ولكن أنا إنسانة ضعيفة، كلام أمك كان كالصفعات القاسية على وجهي وفي قلبي، تعبت من التفكير في كونها لا تقبلني أبدًا؛ كوني امرأة سورية و أنت ابنها تركي، وزوجة ابنها الأكبر تركية، وتعاملني كعبدة وليس كإنسانة مثلها.

الوجع يسيطر على صوت "إسراء" والدموع تتساقط إثر الكلمات القاسية التي تخرج من قلبها المجروح.

توجه إليها "معتصم" وحاول أن يواسيها ولكنها تركت النقاش وذهبت إلى غرفة النوم لتضم ابنتها، وتحاول جذب النوم مثلما انجذب لابنتها، وعندما رأى "معتصم" الوضع في توتر ولا يحتمل نقاشًا أخذ بوسادة وفراش بجانب السرير وقرر النوم على الأرض؛

لأن من الواضح أن "إسراء" قررت أن تنام في حضن ابنتها الصغيرة.

"معتصم" هو الآخر جسمه يرتعش من الصقيع والغطاء الوحيد في الغرفة على الزوجة، وعندما نظرت الزوجة إلى زوجها قررت إزالة الغطاء من فوقها لتغطي زوجها، وتحاول مشاركة صغيرتها غطاءها الصغير الخاص بها وحدها، لكن عندما شعر الزوج بالدفء استفاق ونظر إلى زوجته فوجدها مثلما وجدته، ففعل مثلما فعلت وهو يغطيها فوجد عينها ما زالت مفتوحة، فبادرها بالسؤال:

- لماذا لم تَنَمِي حتى الآن؟

ردت بالإجابة المقنعة: لا يأتيني نوم.

الصباح ينهي المجادلات بين الزوجين ويخرج الزوج للعمل ليترك الوقت يضيع جزءًا من المشاحنات الساكنة في القلوب.

الزوجة جالسة على كرسي المطبخ وفي يدها سكينٌ لتقطيع الخضروات، ولكن عقلها خارج المطبخ يفكر في الخطوات التي ستأخذها بمفردها في الفترة القادمة، وبالفعل تصل إلى حلٍّ من الممكن أن يعارضه الزوج، ولكنها تبدو أنها مقتنعة تمامًا بالخطوات التي ستفاجئ "معتصم" بها.

دقت الساعة الثالثة ودقَّ صوت باب الشُّقَّة، يدخل الزوج:

- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته آل البيت.

يعلم تمامًا أن زوجته مهما كان بينهما من اختلاف في وجهات النظر إلا أنها ستجيب السلام:

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، حمدًا لله على سلامتك.

ابتسم "معتصم" لها، حيث إنَّ جملة حمدًا لله على السلامة شعر أنها بداية الطريق لعودة الحياة

لطبيعتها.

- وكيف حال آفين؟

- الحمد لله، كل شــيء على ما يرام، ممكن نتكلم بعد الغداء؟

- أكيد.

تم كل شــيء على طبيعته وتم تحضــير الطعام وتناول الزوجان الغداء في صمت، وتم إخلاء المائدة وتنظيف آثارها وحان وقت بداية الحُوَار المنتظر:

- قلتِ سنحكي بعد الغداء، تفضلي.

- أنا قررتُ أن أرجع العمل من جديد.

نظر "معتصم" إليها باندهاش: ما الذي تقولينه؟!

ردت "إسراء" على السؤال بالثقة الزائدة:

- سأعود إلى العمل من جديد، الوضع هكذا سيكون صعبًا جدًا ولا بد أن نساعد بعضنا.

"معتصم" يدخل في محاولات إقناعها بعدم خوض

تجربة الرجوع إلى المدرسة: والبنت، وأعمال البيت، كيف ستتحملين مشقة كل هذا؟

لكن "إسراء" لا يدخل عقلها إقناعات "معتصم":

- سأنظم وقتي وعملي، لا تقلق، البنت سأتركها عند أمي حتى أرجع من المدرسة و أيضًا سأحضر طلبات البيت و أنا راجعة، كل شيء مثلما هو لا تقلق.

"معتصم" مستمر في الجدال: هذا كله بسبب موضوع أمي؟

لم تتركه يكمل جملته: فضلًا يا "معتصم" لا نفتح فيما مضى.

- حسنًا، لترجع الحياة إلى طبيعتها.

يبدو أنَّ هذه الجملة هي التي كانت تنتظرها "إسراء":

- نعم، و أنا سأفعل هذا؛ سأعمل وأساعدك حتى إذا طلبت منك أمك مالًا فلا يتأثر البيت والأقساط.

- لا تحملي همّ المال، لكن أريدك أن تتركي الموضوع

حاليًا، أريد اهتمامك يكون بالبنت والبيت في هذه المدّة، و أيضًا صحتك تهمني كثيرًا.

- لا تضغط عليَّ يا "معتصم"، أنا أخذت القرارولن أتنازل عنه.

وبالفعل رجعت "إسراء" لأنها معروفة بالرأس الحديدية التي لا ترجع عن رأيها بسهولة، وتستيقظ تجهز طلبات الصغيرة وتؤكِّلها وتفطرهي و"معتصم"، وتذهب لتوصل البنت عند أمها وتذهب إلى عملها، وبعد انتهاء اليوم الدراسي تمر لتحضر الطلبات الناقصة للبيت وتأخذ البنت وترجع تحضر الغداء، وكذلك استمرت الحياة على هذا الوضع، و أيضًا الحساسية التي بينها وبين "معتصم" من يوم للثاني تقل، والأمور ترجع لطبيعتها، و"معتصم" يحاول أن يساعدها بمعظم أمور البيت لمحاولة تخفيف الجهد عليها، وبعد مرور شهرونصف على هذا الوضع أحب

"معتصم" أن يرجع شريط الحياة الجميلة التي كانت بينهما قبل الخلاف.

-"إسراء"، لماذا كسرنا الاتفاق الذي أخذناه على أنفسنا بأن تُكملي قصتك التي لا أعرف منها سوى القليل جدًا؟!

الصمت خيم على "إسراء" وبعد عدة ثوانٍ:

- الظروف هي التي فرضت نفسها علينا يا "معتصم".

لكن يبدو أنَّ "معتصم" يرغب في عودة الحياة لطبيعتها حقًا فقال:

الحمد لله الوضع بخير الآن، و أنا أقول لك مرة ثانية إذا شعرتِ بالتعب اتركي العمل، وإن شاء الله أقدر أوفر متطلبات البيت.

- لا يا "معتصم"، أنا بخير.

- حسنًا على راحتك، لكن كل الأمور الجيدة التي كنا نتمتع بها من روح وتحاور تعود مثلما كانت.

ابتسمت أخيرًا ابتسامةً تحاول أن تخفيها وقالت: إن شاء الله.

- تمام، هذا يعني أنكِ ستحكين قصتك كل يوم مثلما اتفقنا بعد الغداء؟

- نعم.

"معتصم" يحاول أن يمزح:

- والأهم من دون بكاء!

ضحكت "إسراء" التي غابت ضحكتها لأيام طويلة بسبب آثار الحزن الذي خيم على عقلها وقلبها من أفعال حماتها وظروف حياتها، ولكنها أرادت عدم تقبل الوضع السيئ وتحويله لوضع يناسبها تتعايش فيه وتتأقلم عليه.

- على ما أتذكر وصلنا إلى حدث رجوعك من العمرة و انصدمت بأوضاع البلد وتظاهرات كل يوم.

- نعم، تذكرت، استرحت إلى حد بعيد من تعب

السفر، وعندي فضول كبير لرؤية المظاهرات، ذهب أبي وأخوتي الشباب إلى الصلاة، وقبل أن يخرج أبي قال: "سأخبرك عندما نخرج من الصلاة كي تخرجي معنا في المظاهرات."

وبالفعل اتصل أبي لأخرج، لكن كنت مريضة ولم أقدر أن أخرج، وكان يومها الجو شديد الحرارة، وكانت الناس تخرج من الشرفات والشبابيك يفتحون الخراطيم ويرشون مياه على الناس، وقسم آخر من الناس يوزعون مياه باردة على الشباب، والمتاجر يوزعون مياه أيضًا، ومنهم زوج أختي كان عنده متجرًا كبيرًا كما قلت لك سابقًا، وكان يوزع المياه على الناس الذين بالمظاهرات، وفي تلك الأيام وبالتحديد يوم ١٧ من أبريل؛ عيد مولدي، أراد أصدقائي أن يحتفلوا فخرجنا بعد أن غربت الشمس عند الجسر المعلق مثل خروجات زمان التي كنا نقوم بها، وفرحنا

واستمتعنا جدًا، ورجعنا إلى البيت قبل موعد المظاهرات وقد قرر أهلي أنه لا بد أن نذهب إلى الشام "دمشق" زيارةً؛ لأن أمي كل صيف لا بد أن تقضيه بالشام عند أهلها، وكان لنا بيتًا بالشام، ونزور خالاتي لأن البيت بنفس الحارة.

يبدو أن سيرة الشام أراحت "معتصم".

- كنت أحلم بزيارة الشام، أسمع عنها حكايات جميلة و أتمنى لو أزورها.

نَبْذَة مختصرة عن الشام (دمشق):

الشام أو مدينة الياسمين أو دمشق، كل هذه الأسماء تطلق على العاصمة السورية الجميلة؛ فهي إحدى أقدم مدن العالم مع تاريخٍ غير منقطع من أحد عشر ألف عامٍ تقريبًا، و أقدم مدينة وعاصمة في العالم، أصبحت عاصمة منطقة سوريا منذ عام ٦٣٥، المدينة تعدّ المركز الإداري لمحافظة دمشق، بينما تتبع معظم الضواحي إداريًا لمحافظة ريف دمشق، ويبلغ عدد سكان دمشق المدينة فقط نحو ١.٩ مليون نسمة حسب إحصاءات عام ٢٠١٠ لتكون بذلك هي الثانية بعد المدن السورية بعد حلب، بينما يبلغ عدد سكان محافظة دمشق ٤.٤ مليون نسمة حسب إحصاء ٢٠١٠، لتكون بذلك ضمن أكبر عشر مدنٍ في الوطن العربي بعد القاهرة وبغداد والرياض.

منذ العصور القديمة اشتهرت دمشق بوصفها مدينةً تجارية تقصدها القوافل للراحة أو التبضع، كانت المدينة إحدى محطات طريق الحرير، وطريق البحر، الحج الشامي، والقوافل المتجهة إلى فارس أو آسيا الصغرى أو مصر أو الجزيرة العربية، وهذا الدور الاقتصادي البارز لعب دورًا في إغناء المدينة وتحويلها إلى مقصدٍ ثقافي وسياحي أيضًا، وحاليًا يقوم اقتصاد دمشق على التجارة والصناعة المنتشرة في الضواحي. والسياحة من أهم مصادر الدخل، فقد عُدّت دمشق عام ٢٠١٠ واحدة من أفضل المقاصد السياحية في العالم إلا إنَّ الأزمة السورية عام ٢٠١١ أفضت إلى تراجعٍ كبير في اقتصاد المدينة، وبرزت أزماتٌ اجتماعيةٌ و اقتصادية وسياسية، ولا تزال موجودة تلك الأزمات حتى الآن.

وقد احتلت دمشق مكانةً إقليميةً بارزة على صعيد

الفنون والآداب والسياسة، وحظيت باهتمامٍ كبير من الأدباء والشعراء والرحالة، وقد نُظم في وصفها العديد من النصوص الشعرية والأدبية نذكر منهم:

ياقوت الحلاي الذي كتب:

(وما وصفت الجنة بشيء.... إلا في دمشق مثله)

وقد تطورت المدينة على صعيد الخدمات والتخطيط العمراني، وزادت المرافق العامة وغدت أكثر حداثةً للزائرين، وبرزت المشروعات المعمارية الضخمة فيها، كما أفضت الهجرة من الريف إلى المدينة والنزوح من الجولان وفلسطين إلى نشوء ضواحٍ سكنية جديدة ملحقة بدمشق، مثل مخيم اليرموك والحجر الأسود.

دمشق المدينة تبعد ٨٠ كم عن البحر المتوسط، وتقع على هضبة بارتفاع ٦٩٠م عن سطح البحر وتبعد عنها بيروت ٨٥ كم إلى الغرب وكل من عمان ١٨٠ كم والقدس ٢٢٠ كم إلى الجنوب.

بالرغْم من أنَّ قطاع السياحة قد دُمر بالكامل نتيجة الأزمة السورية فإنَّ دمشق تعدّ مدينةً سياحيةً بامتياز ووضعت حسب بعض التصنيفات في قائمة المواقع السياحية الأكثر أهميةً في العالم، وكان قد قدر عدد السياح في عام ٢٠١٠ بنحو ٦ ملايين سائح لتحتل في ذلك الوقت المرتبة الثالثة في النمو السياحي.

- يا الله على هذا الجمال! نقرأ ونعرف كثيرًا عن جمال الشـــام والمناطق الجملية الموجودة بها، وبعدها، ما الذي حدث؟

- ســـافرنا (للشـــام) وفي هذه الأيام كانت قنوات التليفزيون تبث أحداث الثورة أولًا بأول، وقناة خاصة (لدير الزور)، وكنت أتابع الأخبار، وبعد يومين في الشام كانت أمي تحضر الطعام في المطبخ فوقعت على الأرض، واضـــطررنا إلى عمل عملية في ركبتها بالشام.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

- بقينا على هذا الوضـــع بعد العملية بحوالي شـــهر؛ أمي مستلقية على السرير، أبي وأخوتي يأتون (للشام) ويرجعوا (للدير)، وكان رمضان أوشك أن يدخل، كان باقي عليه يومين، كنت أجلس مع أمي في حجرتها نتابع الأخبار في التلفاز، اتصـــل أبي يطمئن علينا وقال أنه

سيأتي يأخذنا على (الدير) كي نقضي رمضان، فقلت له: لا تتعب نفسك، نستطيع أن نأتي بمفردنا. قال: "أمك مريضة، لن تقدرعلى المشي من (الكراج) للبيت لأن الشوارع كلها مقطوعة بالحواجز."

سألته: لماذا الحواجز؟!

قال: "شباب البلد والجيش الحر وضعوا حواجز بالطرقات لأنهم يريدون أن ينزل الجيش على الدير (ينظف) المدينة من المسلحين، والجيش الحر هنا لأن أهل البلد ليس عندهم سلاح يدافعون به عن أنفسهم عدا قلة قليلة، فالأوضاع أيضًا في الدير تغيرت كثيرًا. "

قلت له: وكيف تسير حياتك أنت وأخوتي؟

قال: "الكل مقيم بالبيت، ولا أحد يخرج ولا يدخل."

- لهذه الدرجة!!!

وللأسف لم يقدر أبي أن يأتي ليأخذنا ولا أحد من

أخوتي، وكان لا بد أن نبقى (بالشـــام) حتى تســـتقر الأمور، بقينا بالشام أنا وأمي، الحمد لله ما كنا نشعر أننا بعيدون عن أهلنا؛ لأن خالاتي وأخوالي ما كانوا يتركنا بمفردنا بالبيت، ويرفضـــون أن نفطر وحدنا، لكن كان عندي قلق كبير على أبي وأخوتي بالدير بعد اتصال قبل يومين من شهر رمضان، و أيضًا أمي ما كانت تكف عن التفكير بهم ولا كانت تشـــعر بالراحة بســـبب مرضـــها، اتصـــلت بأبي أطمئن على الأوضـــاع والحمد لله طمأنني عليه وعلى أخوتي، لكن قال لي أن الجيش صـباح أول يوم برمضـان دخل على مشـارف المدينة وضـرب رصـاصًا كثيرًا في الهواء، ومن ضـمن الرصـاصـات رصـاص دخل شـقَّة بيت عمتي؛ شـقتها كانت بالطابق الخامس، البيت كان على مدخل المدينة لكن عمتي وأولادها أصابهم الخوف والرعب.

- أوصل بهم الأمر لإطلاق النار على المدنيين بدلًا من

المسلحين؟!

وبعدها قاطع "معتصم" حديث "إسراء" بهذه الجملة، يبدوعليه أنه تأمل و اقع سوريا في المستقبل، وصدقت كلمات "إسراء" وقال في نفسه: "أأندهش من إطلاق النارعلى المدنيين في نهار رمضان؟ لماذا اندهاشي والو اقع الآن ليس إطلاق الرصاص بل إطلاق الصواريخ؟!".

بعد مقاطعة "معتصم" التي لم تلقِ تعليقًا من "إسراء" أكملت القصة:

تركوا البيت ونزلوا على بيت جدي، كان قريبًا جدًا من بيت عمتي، وبيت جدي كانت تسكن جدتي فقط، وكان داخل البيت طابق أرضي (بدروم) الكل نزل فيه حتى تستقر الأمور في الشوارع والمدينة، حتى لا يصاب أحد. قلت لأبي: لو الوضع محفوف بالخطر عندك تعال على (الشام) أنت وأخوتي. قال: "لا أحد يقدر أن

يغادر المدينة بسهولة إلا أحيانًا قليلة."

قلت له: هل أنتم بأمان وليس هناك خطرًا عليكم؟

قال: "نحن نحاول ألا نغادر البيت."

- ما كل هذا؟ ألهذه الدرجة الوضع كان يسوء بسرعة هكذا؟!

ضحكت "إسراء" بسخرية:

أنت ما زلت لا تعرف شيئًا؟ هذه الأيام تعدّ أيام الرخاء بالنسبة للأحداث التي حدثت بعدها!

أنا أقول يكفيك هذا القدر اليوم كي أقوم لأطعم "آفين"، و أيضًا لأنام مبكرًا؛ فلدي عمل في الصباح الباكر و أنت أيضًا.

- حسنًا نُكمل غدًا، و أنا سأذهب إلى أبي أطمئن عليه ساعة وأعود، لن أتأخر عليكِ، هل تحتاجين شيئًا من الخارج؟

- لا، تعود بالسلامة، سلِّم عليه.

- سلمك الله، لا حرمني الله منكِ.

يوم بعد الآخر الأمور تمر على ما يرام، والاستقرار يعود تدريجيًا ليُريح النفوس، والزوج يحاول بكل ما لديه من مال ورومانسية أن تعود الأمور لمسارها الصحيح، ويحاول مسك العصا من المنتصف، لكي لا يخسر أجمل النعم التي أنعم الله عليه بها وهما أمه وزوجته، يحاول إرضاء أمه على قدر المستطاع بالرغْم من أنه يشعر بأنها تتحامل عليه في بعض الأوقات، ويحاول أن يحتوي زوجته لأنه بالفعل يحبها وفخور بها، ويتمنى أن تتربى ابنته تربيةً صالحة في بيتٍ ينعم بالأمان والاستقرار.

- رجع "معتصم": السلام عليكم.

- عليكم السلام، حمدًا لله على سلامتك.

- الله يسلمك، متى عدتِ من عملك؟

- منذ ساعة تقريبًا، ذهبت إلى أمي لأحضر "آفين"

و أتيت سريعًا.

- كيف أخبار العائلة؟

- الحمد لله بخير، و أنا هناك كانوا يكلمون "حمزة" عبر الفيديو كول، وأمي كلما تكلمه تبكي كثيرًا.

- ألا ينوي العودة ليعيش بتركيا بجانب أهله؟

- لا، لا أعتقد أن "حمزة" ممكن أن يرجع أبدًا؛ بالرغْم من أنه يُصبر أبي وأمي ويقول سيرجع، و أيضًا أعرف جيدًا أنه مفتقدهما كثيرًا، وكثيرًا يبكي ويقول أنا مفتقدكم؛ لكن أنا متيقِّنة أنه لن يرجع، حتى لو رجع سيرجع زيارة ويعود إلى ألمانيا مرة أخرى، "حمزة" المدلل الزاهد الذي ما كان يحمل كوبًا من مكانه وكان الكل ينفذ له طلباته، بعدما تبدلت الأوضاع بسوريا وسُجن وذاق مرارة الأيام أكيد لن يعيش بمكان يذكره بأيام المُر.

- سُجن! لم أعرف بهذه القصة، سأدخل أبدل

ملابسي و آتي أساعدك في تحضير الغداء، الله لا يحرمني من الجلوس الدائم على المائدة معك، وبعدها نكمل الحديث بقصتك وقصة العائلة.

- اللهم آمين يا حبيبي.

وبعد تناول الغداء وجولة اللعب مع "آفين" تبدأ الآن مواعيد نومها؛ إلى حد بعيد أصبحت مناسبة وأصبحت تعيش مع الأجواء، بعد حوالي ساعة من اللعب والضحك بين البنوتة والأب الحنون انغمست "آفين" في نومٍ عميق، قام "معتصم" وأدخلها إلى غرفتها ووضعها في سريرها وخرج من الغرفة بهدوء.

- "إسراء"، أنتهيت مما تفعلينه؟

- نعم.

- لتعرفي أنك أنتِ من يعطلنا عن قصتك، وتبخلين عليّ بوقتك.

ضحكة سخرية تتعالى أصواتها في أرجاء الشقَّة،

وسـرعان ما تحاول حجب الصـوت بوضـع يدها على فمها حتى لا يصل لطفلتها.

- أعرف أنه أنا التي تبخل فعلًا، قل أنك لديك موعد ولا تريد الإطالة لتلحق به!

ضحك "معتصم" هو الآخر ولكن بابتسامة خفيفة:

- تفهميني كثيرًا أنتِ! لكن عندًا بك لن أغادر وسنحكي للصباح، ما رأيك؟

- نحكي للصباح، إلى أين وصلنا بالقصة؟

أعتقد عندما نزل الجميع إلى البدروم حتى تهدأ الأجواء بالخارج.

- تمام، بعد مرور الأسبوع الأول من رمضان حاول أخي أن يغادر بالسـيارة هو وزوجته وأولاده، ومعهم أخي "حمزة"، وهم في الطريق استوقفهم الجيش وسألهم: "إلى أين أنتم ذاهبون؟"

قالوا: "ذاهبون إلى (الشام)؛ لأن الأولاد خائفون جدًا

من الوضع هنا."

و"طاهر" قال لهم: "ابنتي مريضة، ولا بد أن نذهب إلى (الشام) حتى نعالجها."

والحمد لله استطاعوا أن يمروا، ووصلوا بسلامة الله، لكن عندما رأيتهم حزن قلبي كثيرًا على حالهم؛ كانت وجوههم يظهر عليها الخوف والرعب وشعرت بالحزن الذي على وجوههم، وصحتهم ونفسيتهم كانت صعبة، وفي هذا الوقت ظل أخي "فارس" مع أبي (بالدير)، وفي منتصف رمضان مر الجيش على بيتنا (بالشام)، وما ترك شيئًا بمكانه بحجة أنهم يبحثون على سلاح أو متفجرات، وأخي طاهر وزوجته وأولاده كانوا ببيت مقابل بيتنا، دخلوا عنده وفتشوا بيته أيضًا، بقينا بالشام لنهاية شهر رمضان، وكان لا بد من أن نرجع إلى الدير؛ لأننا سمعنا أن الوضع تحسن والجيش يحاصر المدينة وموجود بكل مكان، والناس

رجعت بشـــكل كبير تمارس حياتها اليومية مع وجود الجيش حولها، وبـالفعـل رجع أخي طـاهر مع أولاده و أيضًـا حمزة، وبعد وصـولهم اتصـل حمزة بنا وقال: "لا ترجعـا الآن؛ لأن الجيش يبحـث عن زوج أختـك ليعتقله وهو هارب خارج (الدير)." وظل يؤكد علينا ألا نرجع على الـدير بســبب أولاد أختي حتى لا يكون عليهم خطر، هم كانوا معنا بالشـــام ولكن بعد أيام قليلة اتصـــلوا بنا من (الدير) وقالوا الجيش اعتقل زوج أختك، في هذا الوقت ما كان هناك من داعٍ لأن نبقى بالشـــام، وكان لا بد أن نرجع إلى الدير لأننا لا نســـتفيد من بقائنا بالشـــام و أيضًـــا ســـيبدأ دوام المدارس.

- يـا الله! ولمـاذا قبضـــوا عليـه؟ وكيف كـان يومـك برمضـان؟ وكيف ترجع المدارس ويذهب إليها الأطفال وَسَط هذه الأجواء؟!

بدا على "إسراء" التعصب من أسئلة "معتصم" وقطعه المتكرر لحديثها فقالت بصوت عالٍ: ما كل هذا يا "معتصم"؟ أأجيب على أسئلتك أم أحكي القصة؟ دائمًا ما تستوقفني بأسئلتك!

هنا ابتسم "معتصم":

- آسف عزيزتي، ولكن فضولي من حديثك يفرض عليَّ أسئلة كثيرة للأحداث التي تطورت بسرعة كبيرة نحو الأسوأ، ورغم ذلك فهذه الحياة تستمر ويستمر الخراب لكن بمستوى أعلى!

استكملت "إسراء" القصة: كنا في طريقنا للعودة، وقلبي يشعر أن المكان الذي أعشقه يقترب، قلت لأمى: نحن قريبون من (الدير).

قالت أمي: "كيف عرفتِ يا "إسراء"؟"

لم نكمل كلامنا والسائق قال: "حمدًا لله على سلامة وصولكم، نحن اقتربنا الآن من (الدير)، برجاء أن

يخرج الجميع بطاقات الهوية لأن الجيش سيوقفنا ويتأكد من البطاقات."

- آسف للمقاطعة، لكن أريد أن أعرف هل الجيش كان قبل الأحداث أيضًا يستوقفكم على حدود كل محافظة؟

- لا، ما كان أحد يستوقف أحد، الأمور كانت مستقرة وكانت من حين لآخر تستوقفنا لجان شرطية، وبالفعل حدث الذي أخبرنا به السائق. وصلنا (الدير)، وكان الوضع مستقرًا لكن الحواجز الحديدية بكل مكان، وعند مراكز الشرطة والجيش انتشرت الدبابات والعساكر كثيرًا بالشوارع، لكن تستشعر أن الناس قد تأقلمت مع الوضع ولم يعد الأمر يشكل فارقًا معهم، وكان عليّ أنَ أعود لعملي بالمدرسة، لكن أبي وأمي كانا رافضين بشدة، واعترضا كثيرًا وقالا: "لسنا بحاجة إلى الدوام (المدرسة)،

وكيف تذهبين وتأتين والحواجز واللجان والعساكر منتشرون؟ نخاف أن يحدث لكِ شيئًا." لكن أنا دماغي حديدية وتمسكت بكلامي، و أني أريد أن أداوم، ومثلي مثل كل الناس، وهذا بعد مشكلات ونقاشات كثيرة جدًا، داومت في المدرسة وكنت أذهب وأعود بالأتوبيس، وكانت تمر علينا ليالي لا نستطيع أن ننام فيها من أصوات الاشتباكات بين الجيش الحر والجيش التابع للنظام، وكانت أكثر الاشتباكات تحدث بآخر الليل حتى الصباح بمنطقة اسمها "الجورة"، وكانت تبعد عن منطقتنا عشر دقائق بالسيارة، والأصوات التي نسمعها مختلفة لا نعرف هل هي دبابات أم مدافع أم ضرب رصاص؟ تنقلب الدنيا ونقول خربت، وينتهي الصوت في الصباح والناس تعود لحياتها بشكل طبيعي كأنه لم يحدث شيء في الليل.

- ألهذه الدرجة كان الوضع سيئًاْ والناس متقبلة الحياة؟!

- ما الذي يستطيعون فعله؟ حتى لو بيدهم أموال وبيوت، لكن وَسَط التهور والسلاح وعدم الأمان ماذا تفيدهم الممتلكات؟

- وبعدها؟

- في كل يوم في طريقي للمدرسة أمر على ثلاثة حواجز للجيش، ويستوقفونا ويأخذون الهويات وخصوصًا هويات الشباب، وفي يوم بعد الدوام كان هناك بجوار مدرستنا مدرسة للمتفوقين إعدادي وثانوي، خرج الطلاب في مسيرة تهتف باسم النظام والجيش ومن بين الطلاب طفل اسمه محمد، بالطبع معظم الذين كانوا بالمسيرة مجبرون على هذا الشيء خوفًا من الجيش، محمد و اقف ولا يهتف ولا يتكلم، رآه فرد من الجيش قال له اهتف للنظام مثل أصحابك، وقف

محمد صامتًا لا يعرف ماذا يقول من الخوف، وجسده ينتفض من الرعب، وبدأت مجموعة من أفراد الجيش تضرب فيه ضربًا مبرحًا حتى خرجت رصاصة بالخطأ من بندقية عسكري ودخلت رأس الطفل محمد ومات فورًا، و انقلب المشهد إلى حزن وبكاء وصراخ، والكل حزن على الذي حدث.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يرحم شهداء المسلمين، هذه تكون ثاني قصة لطفل يحدث معه مثل الذي حدث للطفل في المرة الأولى، وما الذي حدث بعد الحادث؟

- بعد أيام قررت المدرسة تغيير الاسم لمدرسة (الشهيد محمد)، وكلن طلاب المدرسة كل يوم يقومون بنهاية اليوم بعمل مظاهرات تهتف باسم محمد ويطالبون بإسقاط النظام، وفي يوم من الأيام كنت أشعر بالملل كثيرًا وكنت أريد الخروج لأي مكان، فخرجنا أنا وأمي

لبيت عمتي، كان قريبًا من منطقتنا، وكان بعمارة عالية والشقة كانت بالطابق الخامس، دخلنا عليهم وكانوا سعداء جدًا، كنت أنا وأمي وزوجة أخي طاهر وأولاده، جلسنا معهم حتى الساعة الثامنة تقريبًا، وفجأة أمي قالت: "اتصلي بأبيكِ يأتي ليأخذنا."

اتصلت، وقال أبي أنه في الطريق لبيت عمتي، قال لي: "استعدوا." كنا جالسين في الشرفة عندما وصل أبي ووقف أسفل المنزل ونادانا قائلًا: "هيا انزلوا، فالساعة قد قاربت التاسعة مساءً وليس من الآمن أن نتأخر أكثر من ذلك حتى لا تحدث أي عقبات في طريقنا للعودة." ولكن عمتي أصرت على أبي أن يصعد إلى شقتها؛ لأنه منذ مدة لا يزورها في بيتها وتريد أن تصنع له عشاءً، وفعلًا أقنعت أبي أن يلحق بنا ويتناول العشاء معنا. دقت الساعة الحادية عشرة مساءً وقال أبي: "هيا انهضوا." نهضت لأضبط

حجابي، سمعت صوتًا بغرفة ابن عمتي؛ صوت اشتباكات، قلت له: ما هذا الصوت؟

قال لي: "تعالي أُريكِ كيف تحدث الاشتباكات بين الجيش الحروجيش النظام."

قلت له: اجعلني أرى ما يحدث.

وذهبت معه، وشغَّل الإنترنت، دخل أبي وقال: "أما زلتي لم تجهزي؟"

قلت له: تعال انظر إلى الاشتباكات على الإنترنت.

لم أنتهي من الجملة حتى سمعت صوت انفجارهز العمارة، والكل وقع على الأرض، وتصاعد صوت الصراخ والبكاء من كل البيوت والعمارات المجاورة لبيت عمتي، خرجنا ننظرما الذي حدث وجدنا زوجة أخي وقعت على الأرض وفقدت الوعي، كنا نحاول إيقاظها بينما توجه أبي إلى البلكونة ليرى ما الذي حدث؟ فوجد سيارة ملغمة انفجرت وقُتل صاحب

السيارة، و أيضًا الناس المارة بالشارع، وكان مشهدًا مفزعًا جدًا لكننا بلطف رب العالمين لم يحدث لنا شيئًا. عندما عرف أخي بالانفجارفي خلال دقائق جاء لبيت عمتي، ومن عجلته ترك أبواب البيت مفتوحة، والحمد لله عدنا إلى البيت ولم نكد ندخل من الباب حتى اتصل أهل زوجة أخي وأخبروها أن عمها توفي، وكان عمها هو الذي كان بالانفجاروكان عمره ٢٧ سنة.

- يا الله! بكل هذه البساطة! ولكن لماذا لا؟! نحن الآن نرى هذه المشاهد، ثم ماذا؟

- كانت أخطر أيام الاشتباكات التي كان كل سكان الدير يخافون منه يوم الخميس، يوم كله اشتباكات و انفجارات والكل في بيته لا يستطيع أن يتحرك، وفي أحد أيام الخميس بدأت الاشتباكات من قبل الظهر، وكنت بالمدرسة وجاءت صديقتي من نفس منطقتي

وقالت: "لا بد أن نستأذن ونعود إلى البيت لأن اليوم بدأت الاشتباكات، ولو لم نرجع الآن فلن نستطيع أن ندخل المنطقة."

اتصلت بزوج أختي وقال لي: "الوضع شديد الخطورة والطرقات كلها اشتباكات، والكل أغلق متاجره وجالس بالبيوت، فلا ترجعي من الطرقات الرئيسة واسلكي الحارات والطرق الضيقة التي ليس فيها اشتباكات."

ذهبنا إلى المدير أنا وصديقتي، لكن المدير رفض بشدة وقال: "أخاف عليكما من الوضع."

ولأننا أصررنا على الذهاب؛ لأننا لو لم نستطع أن نذهب فلن نجد مكانًا نبيت فيه، وليس لدينا أقاربًا في منطقة المدرسة، فأحضر المدير لنا سيارة وقال للسائق: "أوصلهما للبيوت سالمتين."

وفي طريق عودتنا كان صوت الرصاص طول الطريق

فوق رأسنا قلت للسائق: اسلك طرقات الحارات؟

رد وقال: "المنطقة كلها اشتباكات."

وبالفعل كلما حاول أن يمر من شارع نجد اشتباكات والرصاص حولنا من كل مكان، فنرجع ثانية وندخل شارعًا آخر، أخذنا ساعة تقريبًا حتى اقتربنا من بيت أختي، ذهبنا عندها حتى حلَّ المساء وجاء أخي وأخذنا إلى البيت أنا وصديقتي.

- كنت أتخيل أن الاشتباكات تكون في الصحاري والغابات بين المسلحين والجيش أو الشرطة، ما كان يخطر ببالي أن الاشتباكات تكون وَسَط الأهالي والبيوت والمساجد وبكل بساطة هكذا، ومن الممكن أيضًا أن يكون المسلحين أو أفراد الجيش والشرطة من سكان هذه المناطق والمسلحون يقتلون عائلاتهم هكذا!

- إنه أمر مفروغ منه أن يوجد أهل للجنود وَسَط

الاشتباكات، وأن يصابون أيضًا. في نفس اليوم بعدما عدت لم ألحق أن أرتاح؛ نظرت من الشباك لأرى الشارع، فوجدت شبابًا مسلحين، خفت كثيرًا فوجدت في وجهي طاهر ووجهه مخطوف، وقال لي: "هيا، ليذهب الجميع إلى بيتي ولا يبقَ أحد منكم هنا."

- قلت له: ماذا حدث؟

- قال: "نفذي ما قلت واذهبي لأبي وأمي وفارس، إلى بيتي."

وبالفعل ذهبنا بسرعة إلى بيت طاهر وجلسنا في البهو، وكان صوت الاشتباكات في الحارة وبِتنا ساهرين نسمع صوت الانفجارات حتى السابعة صباحًا، الكل يده على خده وحزين.

- قلت لهم: اجلبوا لنا المحشي لنأكل، ثم أعددنا الشاي والقهوة وجلسنا حتى الساعة الحادية عشرة مساءً وعندها الصوت انتهى، استمر حوالي ثماني

عشـــرة ســـاعة متواصـــلة والناس بدأت تخرج إلى الشـــوارع لتعرف ما الذي حدث؟ وعرفنا أن جيش النظـام قـال أن الجيش الحر إرهـابيون، وقرر أن يقضـي عليهم، ودخل المدينة بكل الأسـلحة والدبابات والعربات العسكرية، وبالفعل كان هناك خسائر كبيرة في الجيش الحر، و أيضًا أوجه البيوت والسيارات التي كانت في الشـــوارع، والوضـــع في غاية الحزن، وأخذ الناس بالركض في الشـــوارع ليروا ما الذي تبقى من سياراتهم التي كانت في الشوارع.

- هل أنتِ بالفعل رأيتِ كل ما حدث هذا وليســـت قصة خيالية؟!

ضحكت "إسراء" ضحكة عالية وهي تتذكر الذكريات السيئة ولاستغراب ودهشة معتصم وقالت: الأوضاع أعتقد كل يوم مثل الذي قبله لا تختلف كثيرًا، وربنا الحارس، وفى يوم دخل علينا حمزة وقال: "اليوم يا

أهل البيت هناك انتخابات ولا بد أن تفوز المعارضة لكي ينكسر النظام ويهدأ الجو المشتعل الذي نعيش فيه."

رددت على حمزة وقلت له: أي انتخابات؟ و أين هم الناس الذين سينتخبون ويختارون؟! الناس إما ماتوا أو مصابون بالبيوت أو متخوفين من الذي يحدث، ولن يخرج أحد من بيته.

قال لي: "فلتبقين أنتِ بالبيت و افتحي التلفاز على محطة الجبيلة." وخرج هو، و أنا جلست أشاهد التلفاز فرأيت حمزة في المظاهرات، لم يكن وجهه ظاهرًا لأن كل المتظاهرين كانوا يرتدون أعلام الثورة و أقنعة على وجوههم، لكن عرفت حمزة من البنطال والتيشيرت الذي يرتديهم، و أيضًا عرفته من هيئته وجسمه، كان و اقفًا مع مجموعة من الشباب. وقتما رأيته كدت أُجَن ولم أعرف ماذا أفعل؟ كان و اقفًا

أمام الصناديق يقوم يعمل انتخابات للشهداء! مما يعني أنهم يهينون النظام وحزب النظام ويقولون لهم أنتم تنتخبون بعضكم ونحن ننتخب الشهداء.

أصبحت مثل المجنونة و أنا جالسة أتابع، جاءت أمي فقلت لها، أمي وجهها احمرّو انقلب حالها، ووضعت حجابها على رأسها وقالت لي: "أنتِ أيضًا ضعي شيئًا على وجهك حتى لا يعرفنا أحد ويعرف أن حمزة ابننا." و أنا أضع الحجاب على وجهي فوجئت بأبي يقف في ظهري فقلت له، قال: "يا الله! هيا بسرعة نذهب بالسيارة لنحضره ونعود."

ووقف أبي بمكان بعيد عن الزحمة والصناديق والكاميرات، وأمي نزلت وقالت لأبي: "لا تنزل، سأحاول أن أسحبه دون أن يشعر بي أحد حتى لا يتضايق ابنك."

ذهبت أمي وبعد دقائق لم يقدر أبي أن ينتظر فلحق

بها، أمي كانت تحاول أن تلفت انتباه حمزة من بعيد حتى لا ينتبه أحد، لكن حاولت كثيرًا ولم يأت، وعندما وجدت أمي أبي بجانبها غضبت وقالت: "لماذا أتيت؟ هكذا سيعرفنا الجميع!" أشار أبي لحمزة وذهب إليه وجلبه من بين الناس، أتى حمزة إلى السيارة وعينيه فيها شرار مني، وقال: "خربتم كل شيء! والآن فضحتوني، وعرف كل من بالبلد من أكون!"

و أقسم أنه سيقوم بعمل مشكلة كبيرة، وركب السيارة وقادها مثل المجنون. وصلنا البيت و أنا نزلت وفورًا ذهبت لبيت جدي بالحارة الثانية خوفًا من حمزة أن يفعل لي شيئًا؛ لأنه لم يعد يرى أمامه ويعرف أنني أنا التي أفسدت عليه يومه، وبقيت عند جدي حتى هدأ حمزة، وفي ذلك الوقت عرفنا أن حمزة ومجموعة من رفقائه يذهبون يهتفون ويعودون، كان لديه أيضًا بالغرفة دهانًا ولافتات يكتب عليها

وينشرها، و أبي غضب بشدة عندما رأى هذا الوضع وقال له: "نحن نخاف أن يظل أي شيء هنا؛ لأن هذا يخرب بيتنا ويضيعك." وخاصة أن الدهانات والبخاخات من مصنع أبي. أخذ أبي كل هذه الأشياء فحرق قسمًا منهم ووزع القسم الآخر حتى تخلص منها، كنا نعرف أن أخي يخرج يهتف مع الشباب ضد النظام...

- لماذا وقفتي؟

- يكفي هذا اليوم، تصدع رأسي كثيرًا، أشعر أن تلك المو اقف أعيش فيها الآن ولست أحكيها فقط.

- ارتاحي قليلًا طالما أن ابنتنا نائمة.

- و أنت إذا أردت أن تذهب لأبيك أو أختك اذهب لكن لا تتأخر؛ لأن لديك عمل في الصباح.

- لا، أنا من الممكن أن أخرج لأقابل أصدقائي لمدة ساعة وأعود؛ لأن لدي عمل هام جدًا في الغد، وإن

شاء الله إذا تم سيكون فيه خيرًا كثيرًا.

- تمام، يسر الله لك أمورك.

استيقظت "إسراء" على أشعة الشمس وقالت: كانت رؤية تنبض بالحياة وكأني عشتها بالفعل... شعرت بالفرحة والخوف، هل هي بشرى؟ هل ألحق بهم؟

وبعدها رفعت الحواجب لكي ترى هل هي تحلم أم هي في الو اقع الذي مرَّعليها؟ ولكنها أيقنت بعدما وجدت "معتصم" بجانبها على التخت (السرير) أنَّ ما رأته مجرد حلم في نومها، قامت لتحضر زي العمل ل"معتصم" وتجهز الإفطار له ولطفلتها، وليبدأ روتين كل يوم.

وبعد نهاية يوم "إسراء"، قررت أن تهاتف "معتصم":

- سلام عليكم "معتصم".

- عليكم السلام، كيف حالك "إسراء"؟

- الحمد لله بخير، كيف كان عملك؟ هل انتهيت منه؟

- الحمد لله بتوفيق من رب العالمين وقَّعنا عقودًا مع شركة كبيرة جدًا، وسيكون هناك عائدًا ماديًا جيدًا لحد بعيد.

- الحمد لله، هذا الخبر أبهجني كثيرًا، أنا سأذهب لأمي لأجلب "آفين"؛ لكن سأبقى هناك لبعض الوقت لأطمئن على العائلة، هل سيكون بإمكانك أن تمر علينا لنتناول الغداء عند أبي ونعود للبيت سويًا؟

- أنا موافق، اذهبي لأهلك مكثي لديهم على راحتك وأنا أيضًا سأذهب لبيت أبي أطمئن عليهم بعدها سأهاتفك ونعود لبيتنا.

- تمام، اتفقنا، الله معك.

وبالفعل تم ما اتفق عليه الزوجان، وفي نهاية السهرة وبعد يوم اتسم بهدوء وراحة البال لاطمئنان كل منهما على عائلته:

- أعتقد أن اليوم كان جميلًا جدًا.

- نعم، بالفعل يا "معتصم"، كان لطيفًا جدًا يا حبيبي.

- كنت مسرورًا و أنا بين أهلك، و أيضًا و أنا أفعل شيئًا كنت أحلم به.

- لقد ذكرتني، هيا أخبرني عن العمل المهم الذي قمت به اليوم.

- اسمعي، هناك شركة كبيرة جدًا في مجال استيراد الخيوط من أكثر من دولة حول العالم لإنتاج الملابس، هذه الشركة كانت تتعامل مع مكاتب كبيرة للاستيراد والتصدير، وعرض عليَّ صديق ليَّ أن أتقدم بعرض للشركة ونتفق معهم أن نكون من ضمن المكاتب الذي تستورد لهم الخيوط، وأن يساعدني هو في قبول عطاء مكتبنا في الشركة، وبالفعل دبرت الأوراق المطلوبة وقدمتها والحمد لله العطاء قُبل، والشركة حددت معنا موعد الاجتماع والاتفاق على فقرات التعاقد المختلفة، والحمد لله تم الاتفاق على معظم

الفقرات وعمل العقود اللازمة، وأعتقد أن هذه الخطوة هي خطوة مهمة جدًا في عملي، و أيضًا هي فرصة كبيرة لتطوير المكتب.

- هذه أخبار جميلة جدًا، مسرورة لك جدًا حبيبي، لكن لماذا لم تخبرني قبل أن تسير في الإجراءات؟

- بإذن الله بعد هذه الخطوة سنقدر على تسديد باقي الأقساط، و أيضًا التركيز في الأشياء التي نحتاجها ولا نستطيع أن نحصل عليها بسبب قلة الأموال.

- إن شاء الله نفعل كل الذي نريده مع بعضنا البعض.

- كل يوم يزداد فضولي لأكمل قصتك، قصة مثيرة جدًا وعظيمة، قصة شعب مكافح وعظيم، هل من الممكن أن نبدل ملابسنا ونُعد شيئًا نشربه ونكملها؟

- آسفة حبيبي، لكني اليوم من المدرسة لبيت أبي لمساعدة أخواتي وأمي في إعداد الطعام للطريق من عندهم لهنا، كل هذا جعلني أصاب بالصداع وأود أن

أستريح.

- حسنًا حبيبتي، لا يهمك، فالعمر كله لنا، استريحيأنتِ و أنا سأعد شيئًا لأشربه وأشاهد التلفاز قليلًا ثم أنام.

- تصبح على خير.

صباح يوم جديد شمسه تتوغل نو افذ غرفة النوم لتوقظ "إسراء" من نومها العميق.

- يا الله! لقد تأخرت على الدوام.. "معتصم".. "معتصم"!

- صباح الخير حبيبتي.

- هيا استيقظ، لقد تأخرنا كثيرًا في النوم، وتأخرت أنت أيضًا عن عملك.

- اهدأي، لعله خير، انهضي وتجهزي و انتهي من أمور البنت والبيت، وإذا لم يسعفك الوقت قومي بعمل اتصال للدوام واطلبي إجازة.

- قم أنت وجهز نفسك لتذهب لعملك.

وبالفعل لم تستطع "إسراء" الذهاب إلى عملها، وانتظرت هي و آفين في البيت، وإذا بالهاتف المحمول يخرج عن صمته ويظهر اسم "معتصم" على شاشته.

- سلام عليكم "معتصم"، كيف الحال؟

- الحمد لله بخير، ما رأيك أن نتناول الغداء بالخارج اليوم ونتنزه قليلًا؟

- فكرة جميلة يا حبيبي.

- تجهزي إذًا، وأنا ساعة وأكون تحت البيت.

وخرج الزوجان وابنتيهما إلى مطعمٍ لتناول الغداء، وبعدها إلى حديقةٍ للاستجمام، والمساحات الخضراء أخذت عيون "آفين" وسرحت في جمال الطبيعة:

- ما رأيك أن تحكي لي قصتك في هذا الجو الجميل؟

ابتسمت "إسراء" بسخرية:

- بالفعل اخترت الوقت المناسب!

ضحك "معتصم":

- يوم بعد يوم يزداد الفضول لدي لأعرف كل التفاصيل، أنا أذكر أن في مدّة خطبتنا تكلمنا في القصة لكن لم ندخل بكل التفاصيل بسبب ضيق مدّة الخطبة، و أيضًا انشغلنا بالتجهيزات، وكلما أفكر كيف يكون لدي بطلة حقيقية و أنا لا أعرف الكثير عنها؟ فهذا عيب كبير في حقي، و أيضًا كلما عرفت بالذي حدث معكِ يزداد فخري واعتزازي بكِ يومًا بعد يوم.

- ألهذه الدرجة تهمك المعرفة؟! وبعد كل هذا الوقت من زواجنا! حقًا أنا مسرورة بكلامك هذا.

- سأذكرك بآخر موقف أتذكره، و أنتِ أكملي.

- إلى أين توقفنا؟

- عندما ازداد الوضع تدهورًا، و أيضًا عندما علمتم أن حمزة يخرج في مظاهرات ضد النظام.

- بعدها والحمد لله أكرمني ربي واستطعت أن أقنع

أبي وأمي أن نذهب إلى الشـــام، أنا وهي فقط لنزور الطبيب. وصـــلنا (الشـــام) وزرنا الطبيب وأجرى لها الفحوصـات، اطمأننت على صحة أمي وكان لا بد أن أطمئن على صـحة أخوتي و أبي (بالدير) وخاصـــة أن أولاد أخوتي لـديهم امتحـانـات ويـذهبون للمـدرســـة. اتصـــلت بأختي، كنت أشـــعر أنها خائفة وهي تكلمني وقـالـت: "الجيش منتشـــر في (الـدير) بكثافة ووضـــع المدافع على الجبل، ومن وقت للثاني يضـــرب الجورة (منطقة بجوار المنطقة التي نعيش فيها) والناس تنزح من (الجورة) وترحـل لأمـاكن أكثر أمـانًـا، وأصـــوات الضرب والقصف في كل مكان."

قلت لها: وامتحانات الأولاد؟

قـالـت: "وقـت الصـــبـاح يكون الوضـــع هـادئ، وتبدأ الأوضاع تسوء عند غروب الشمس."

بعد حوالي خمسة عشرة يومًا في (الشام)، كل يوم

اتصـــل بأخوتي أطمئن؛ لأنهم كلهم يتجمعون في بيتنا حتى أختي التي زوجها معتقل أحضرها أبي من منطقة (الحميدية)؛ لأن كان فيها ضـــرب و أيضًـــا لا يجب أن تبقى وحـدهـا في ظروفهـا هـذه، وكـانـت أختي الثـانيـة تســكن هي وأهـل زوجهـا بـالجورة، وعـنـدمـا حـدث القصف نزحوا من ضمن الناس الذين نزحوا وذهبوا إلى منطقة آمنة اســمها (العمال) (بالدير)، كان لهم بيوتًا هنـاك لكن لا يوجـد فيهـا مســـتلزمـات، أخـذوا معهم بعض المستلزمات وذهبوا. فوجئت بأبي يتصل ليطمئن علينا وقـال: "أرســلـت أخـاكِ طـاهر وأولاده وزوجته وأختك أمل وأولادها إليكم (بالشـــام) وأدعو الله أن يصـلوا عندكم بالسـلامة لأن الوضـع صـعب جـدًا، وخفنـا على الأولاد من الأصـــوات فقررت أن أرسـلهم إلى الشـام، عندما يصـلون أخبريني فورًا حتى أطمئن."

التأثر بشدة الأحداث يجذب عقل وشعور "معتصم"، وينظر إلى "إسراء" ويسمعها بإنصاتٍ تام، والصغيرة ما زال يشغلها جمال المنظر والأطفال الذين يلعبون حولهم وتزيد المكان جمالًا، وتابعت "إسراء" وقالت: والحمد لله وصلوا الشام بخير، وصلوا مرهقين جدًا، متعبين وجائعين جدًا، قلت لهم: لماذا لم تجلبوا طعامًا معكم من الدير من أجل الأولاد؟

قالوا: "لقد جمعنا بعض الملابس وخرجنا مسرعين؛ لأن أخاكِ أتى وأخبرنا أنه وجد أتوبيسًا متجهًا في التو للشام ويجب أن نسرع ليوصلنا إلى (الكراج)، وقال أن الأتوبيس سيسافر بعد نصف ساعة، فخرجنا من فورنا لأننا نعلم أن الطرقات قد تنغلق في أيَّة لحظة ولن نستطيع العبور وقتها، وبالفعل توجهنا للكراج، وما إن وصلنا حتى سمعنا أصوات القصف على البلد وصوت المدافع والقنابل كانت تهز الكراج؛ لأن المسافة

بين الكراج والدير ربع ساعة بالسيارة، وكادت قلوبنا أن تنخلع من الخوف، والأولاد يبكون ويصرخون من شدة صوت القصف، الدخان صنع سحابة سوداء فوق رؤوسنا، ودخلنا المكتب الذي يحجزون منه التذاكر، فكان الأولاد من شدة الخوف والفزع ينزلون تحت الطاولات، وكان الكثير من الناس يفعلون نفس الشيء، وطلبوا منا أن ننتظر ساعتين حتى يهدأ الوضع قليلًا، صوت القصف هدأ فتوجهنا إلى الأتوبيس، ولكن عندما خرجنا من محافظة الدير تعطل الأتوبيس ونزلوا ليصلحونه فأخذ منهم ساعتين إضافيتين ليتم تصليحه، وفي هذه الأثناء أصاب الأولاد الجوع الشديد، كما أن الطريق من الدير إلى الشام استغرق خمس ساعات فكادوا يهلكون جوعًا."

- يا الله على الوضع والأحداث! عذرًا للمقاطعة، وماذا

بعد؟

"معتصم" بعدما قالت له "إسراء" في إحدى المرات "حاول التقليل من الأسئلة وعدم المقاطعة،" يكاد لا يمتلك نفسه عندما يخرج الكلام منه دون دراية، ولكن وهو يعلِّق يتذكر كلام "إسراء" فيعتذر في نفس الجملة.

- أقمنا بالشام حوالي شهرين، خلال تلك المدّة ظلت أختي و ابنة أخي معنا ورجع أخي حمزة، أما أبي وأخي فارس فرفضوا الخروج من الديروظلوا بها. الوضع كان مستقرًا (بالشام) لكننا لم نشعر بالراحة؛ لأنه قد أتى شهر رمضان للمرة الثانية ونحن كل جزء من العائلة في مكان، و أيضًا كان أبي وأخي فارس يهاتفاني يومًا ويختفيان أسبوعًا حسب وضع الاتصالات بالبلد، وقد كنا مرعوبين من الوضع عليهم؛ الناس تترك بيوتها وأموالها وتفر من الضرب وحصار الجيش،

الناس إذا بقيت في بيوتها ممكن ألا تموت من القصف ولكن ممكن أن تموت من الجوع والمرض في مدّة العزلة في البيوت خوفًا من الخروج من بيوتها، و أيضًا لم يعد أصحاب المَحَالّ والمقاهي يفتحون محلاتهم وتعطلت مصادررزق الجميع.

من شدة الأوضاع التي تسترجعها "إسراء" يبدو أن طفلتها شعرت بالوجع والتأثر مثل أمها و أبيها المنصت فبكت فجأة بالرغم من أن الأجواء المحيطة بهم ما زالت جملية، ولكن تكاد تكون تأثرت بما تقوله أمها، محاولة التهدئة، وبعدها بعشر دقائق دخلت "آفين" في نومٍ عميق لتترك المكان والكلام وتذهب لعالمٍ آخر يخصها هي فقط.

ابتسم "معتصم" وقال: أكملي حبيبتي.

- كان أخي حمزة كل يوم يخرج يسهر مع الشباب ويزيد وجع قلوبنا عليه، لا يكفينا انشغال عقلنا على من

هم بالدير حتى أتى حمزة الذي لا يستجيب لنصائح أحد ليزيد قلقنا، كما أن الأوضاع في عدة مناطق بالشام حدث فيها اشتباكات في بعض المناطق، كنا نقيم في الشام بمنطقة اسمها (ببيلا)، كانت قريبة جدًا من منطقة (السيدة زينب)، وكان فيها إيرانيين بكثرة يأتون لزيارة مقام السيدة، وهنا طبعًا كان الجيش الحر لا يحب الإيرانيين؛ لأن (إيران) كانت قد اشتركت بالحرب على (سوريا)، وأحيانًا كانت تحدث اقتحامات بالمنطقة التي نحن بها وأصبحت غير آمنة، ونحن أعصابنا تلفت من الأوضاع التي تتدهور كل يوم. وذات يوم حدثت اشتباكات بالمنطقة و أتى زوج ابنة خالتي وقال: "لا بد أن نغادر المنطقة فورًا؛ لأن الوضع صعب والاشتباكات من الممكن أن تصيب البيوت."

وأخذنا السيارة وتوجهنا إلى منطقة اسمها (كفر

سوسة) عند خالتي، لكن بيت خالتي صغير لا يتسع لخمس عائلات، فقررنا أن نذهب إلى هناك ونظل في حديقة جانب البيت حتى الليل، ربما يهدأ الوضع ونرجع لبيوتنا، وفي ذلك الوقت كنت أشعر بالضيق والاختناق بشدة و أقول في نفسي: "كل البيوت وكل المال الذين نملكهم وصارت نهايتنا بالحديقة!" خالتي وأولادها لما رأوا وضعنا قالوا: "تعالوا للداخل حتى لو نمنا ملتصقين ببعضنا البعض."

قلنا: "لا، فسنعود ليلًا."

وبقينا في الحديقة حتى أقبل الليل، وبالفعل رجعنا وكان الوضع أفضل، ظل عند خالتي حوالي عشرة أشخاص ورجع الباقي، بقينا بالبيت يومين وفى اليوم الثالث "طاهر" قال: "سنتوجه جميعنا إلى (الحسكة) حيث بيت والد زوجتي ونستأجر بيتًا كبيرًا ونقيم هناك."

لكن أنا وأمي وأخوتي رفضـــنا وقلنا: "لن نتحرك من هنا مجددًا إلا إلى الدير، أنت خذ أولادك واذهب ليكونوا بمأمن هناك؛ فكلما سمعوا صوت الرصاص يكادون يموتون رعبًا."

و اقتنع وذهب، كان قد قرر أن يذهب إلى هناك يستأجر بيتًا ويطمئن على أولاده وزوجته ثم يرسل لنا بعدها لنلحق بهم، لكن في تلك الأيام كان الوضع في غاية الخطورة والصعوبة علينا، وبالأخص كان على "حمزة" لأنه لم يؤدي الخدمة في الجيش، فإذا استوقفه أحد سيأخذه، خفنا عليه كثيرًا فبعث أبي أخي "فارس" إلى (الشام) وأمر "حمزة" أن يرجع إلى (الدير) لأن "حمزة" لم يكن يجيب طلبًا لأحد إلا أبي، و أبي قال: "الدير تتعرض للقصف كل يوم ولكن لا يدخلون البيوت ويبحثون عن أحد فيها، كما أنني لن أتركه يخرج من البيت." وبالطبع و افق "حمزة"،

و أتانا "فارس" ليلبي طلباتنا، في هذه المدّة كان الوضع في الدير صعبًا جدًا، وعندنا في (ببيلا) يوم جيد ويوم سيء، وكان يزداد قلقنا على "أبي وحمزة"، ووضع الدير الذي أصبح صعبًا جدًا، وكل يوم نشاهد على التلفاز الشهداء وكيف ماتوا. وبينما كنا نشاهده ذات يوم وجدنا أن من بين الشهداء ابن عمتي! استشهد وهو موظف بشركة الكهرباء، وكان قد خرج ليصلح أكبال الكهرباء المقطوعة وأصابته قذيفة ومات، ونحن أصابنا الرعب على "أبي وحمزة" خاصة أن أخبارهم قد انقطعت عنَّا ولم يعد هناك وسائل اتصالات، وكل يوم نشاهد القصف على منطقة (الجبيلة) وبنفس حارتنا ونحن نرتعب من الخوف، وفي يوم القصف بالطيران أصاب وحدة تنظيم الأسرة، وكانت تبعد عن بيتنا حوالي عشرة أمتار، عندها تلفت أعصابنا نهائيًا، وقصف جامع الفردوس

وهو أيضًا كان بجانب بيتنا، وهنا قررنا أن نتوجه إلى (الدير) في الصباح لنطمئن على "أبي وحمزة"، و"فارس" قال: "لا تذهبون، أنا سأذهب أطمئن عليهم وأعود."

لكننا قلنا: "أنت تريد أن تذهب وربما لا تستطيع العودة فنموت نحن قلقًا وخوفًا عليك، لن نتركك تذهب وحدك، سنذهب معك." كان أيضًا الوضع بمنطقتنا سيئًا.

كان "معتصم" من شدة اندماج "إسراء" في القصة يخاف جدًا من قطع "إسراء" عن حديثها، مع أن لديه أسئلة كثيرة، ولكنه يعلم أنها لا تحب التدخلات وقطع حديثها.

ومن تأثير القصة بدأت تتساقط دموع "إسراء" التي قام "معتصم" بفتح خزائن أسرارها؛ أسرارها التي كانت تتمنى ألا تعيشها أو حتى تسمعها، وحمدت الله

على النجاة منها، وبعد سنوات يجعلها "معتصم" تفتح هذه الخزائن مجددًا لتتجدد معها أحزان أيامها.

- آسف "إسراء"، لكن لم أكن أتخيل أن كل هذا يحدث وبهذه التفاصيل التي تحكينها، فلنعد الآن لبيتنا ثم نستكمل حديثنا وقت آخر.

- نعم هيا، حتى لا تصيب برودة الأجواء البنت، وحتى ننام مبكرًا لكي لا يفوتني الدوام مثل اليوم.

ضحك "معتصم" لأنه لم يفته مثلما فات "إسراء" وقال: إذا فاتك الدوام هاتفي المدرسة وأخبريهم بعدم حضورك، وأهاتفك أنا ونخرج نتناول الغداء بالخارج ثم بعد الغداء نأتي إلى الحديقة لتحكي وتبكين ونكرر أيامنا بنفس الروتين.

ضحكت "إسراء" من دعابة "معتصم":

- وهل يهمك الأمر؟ تذهب أنت لعملك دونما تأخير

و أنا أُطرد من عملي، و أيضًا يحترق قلبي على ما عشته من أحداث؛ لأنني سأبقى في البيت وحدي أحادث نفسي و أتذكر الماضي والوجع الذي فيه.

- حبيبتي أنا عملك، و أنا وجعك، ارمي كل حمولك عليَّ، و أنا "معتصم" بقدرة الله مثل اسمي يا حبيبتي.

- يا لمزاحك هذا!

وفات يوم مختلف عن باقي الأيام المتكررة، يوم جميل بالابتسامة والراحة النفسية؛ لتعود الأيام كما كانت في سابقتها من روتين، الروتين الذي يسرق لذة الحياة ويسلب الوقت، ويفوت يوم تلو الآخر ويمر أسبوع وراء الآخر، وعداد الشهور يسير بسرعةٍ، ونفاجأ بالمعاش، وننظر إلى الأيام المؤثرة نجدها تُعد على الأصابع، يا لها من حياةٍ لا قيمة لها! يا لها من ظروفٍ نخرج منها لنبدأ ظروفًا أخرى تتحكم فينا! وهكذا كان كل هذا حديثًا يدور في خيال "معتصم" الذي يندهش كثيرًا عندما

يرى زوجته، ويندهش أكثر عندما يعرف أكثر عن قصتها القديمة، ويقول في عقله: ""إسراء" خرجت من حياة تقريبًا كلها وجع، كلها حزن، وقلة حيلة، وبعد كل هذا وبعد زواجها وأعمال البيت وطفلتها ما زالت تجاهد من أجل الحياة!"

ابتسامة سخرية ترتسم على وجهه.

وبالفعل في اليوم التالي خرج كل منهما لعمله، و"آفين" تنقطع أنفاسها من بكائها ببيت جدتها، ولكن هذا اليوم قرر "معتصم" الغداء هووهي عند أمه، وعند معرفة "إسراء" بهذا بدا على وجهها عدم الارتياح، ولكن لا تجرؤ ولا تقدرعلى رفض طلب لزوجها بالرغْم من مضايقات حماتها.

- "معتصم" سأذهب لأضبط أموري وسنكون بانتظارك عند بيت أبي.

- اتفقنا.

وبالفعل هاتف "معتصم" أمه ليخبرها أن تحضر الغداء. استقبال حافل باستقبال الحفيدة الغالية وأيضًا الابن الأكبر... الأسئلة المتوقعة ترمي بظلالها على الجِلسة العائلية:

- كيف حال عملك "معتصم"؟

- الحمد لله يا أبي، الأمور بخير والعمل يسير على ما يرام.

- وهل أخوك يعاونك أم يترك كل الأعباء عليك؟

- لا طبعًا، فكل واحد منا له مهامه ولا يقدر واحد فقط على كل العمل، كلنا نكمل بعضنا البعض.

- جيد، ربنا معكم.

- أمي، وكيف صحتك؟

- بخير "معتصم"، لماذا أنت نحيف هكذا؟

- لا يا أمي، أنا أحاول أن أتبع نظامًا صحيًا.

- بل قل أنك لا تجد من يُعد لك طعامًا بسبب انشغال

"إسراء" بالدوام و آفين!

هذه المرة لم تقدر "إســـراء" على تفويت تلك الجملة دون تعليق:

- لا يا "أمي"، أنا أهتم جيدًا "بمعتصم" و ابنتي وعملي وبيتي، لا تقلقي.

دخل "معتصم" وَسَط النقاش.

- "إســـراء"، أمي، من فضـــلكما، ليكن النقاش دون خناق ولا عتاب.

- لا يا حبيبي، أنا أطمئن عليك.

رسمت "إسراء" على وجها ابتسامة صفراء:

- اطمئني كثيرًا يـا "أمي"، ابنـك في عينيّ، إنـه حبيبي الأول والآخير.

- تسلمين لي يا قلبي.

ضحك أبو "معتصم":

- الله على الرومانسية، الله! هل سنأكل أم سنقضي

الوقت فقط في المنازعات والرومانسيات؟

الضحك والابتسامات على وجوه الجميع والصمت أثبت وجوده بدخول الطعام، وفي نهاية الاجتماع العائلي: مع السلامة أمي، مع السلامة أبي، إن شاء الله نجتمع دائمًا بخير وعلى الخير.

- إن شاء الله حبيبي، لا تتغيبوا عنا كثيرًا؛ فأنا أشتاق للبنت دائمًا.

- نعم، سنجلبها لك تلعبين معها دائمًا.

- لا تتوقف عن البكاء ولن تتحملينها.

- بكاؤها كروان على أذني، ربنا يبارك لنا فيها ويجعلها لنا من الذرية الصالحة.

- اللهم آمين، سلام.

- "إسراء"، ما رأيك أن نذهب إلى أي كافيه لنشرب شيئًا ثم نعود للبيت؟

- كما تريد.

وبالفعل اتجه "معتصـــم" إلى الكافيه الذي يطل على مناظر جميلة تريح النفوس، وحاول "معتصـــم" أن ينســـيها الحُوَار اللاذع الـذي حـدث بينهـا وبين أمـه، و أيضًـــا اســـتطاع أن يقنعها أن تكمل حكايتها ببعض الجمل الرومانسية والعاطفية.

- أكملي قصـتك، أقول لك أين توقفنا؟ توقفنا عندما قال فارس: "لا تذهبوا أنتم وسـأذهب أنا أطمئن عليهم وأعود."

ضحكت "إسراء" على شغف "معتصم".

- كل هذا الاهتمام "يا معتصم"؟ أنا فخورة باهتمامك بالاســتماع بالرغم من أن الأحداث لم تعد الأفضــل، ولكنك لا تبخل بوقتك ولا باهتمامك، سأكمل.

لقـد قلنـا "لفـارس": "أنـت تريـد أن تـذهـب وربمـا لا تســتطيع العودة فنموت نحن قلقًا وخوفًا عليك، لن نتركك تذهب وحدك، سنذهب معك." جهزنا أنفسنا،

وكان أيضًا الوضع بمنطقتنا سيئًا، بعدها في اليوم التالي جهزنا حقائبنا و أتى زوج ابنة خالتي ومعه سيارة نصف نقل مفتوحة من الخلف، ركبنا جميعًا في الخلف، عندما خرجنا كان الجيش يحاصر (ببيلا) بالدبابات والمدافع والعساكر، والأوضاع في غاية الصعوبة، لكن الحمد لله استطعنا أن نغادر (ببيلا) دون أن يوقف سيارتنا أحد، وصلنا (الكراج) بعد رحلة كلها تعب أعصاب وخوف وجوع صعب علينا وعلى الأولاد، نزلنا من السيارة وركبنا الأتوبيس لنذهب به إلى (الجبيلة)؛ لأن السيارة لا تستطيع أن تعبر المنطقة، وبالفعل ذهبنا بالأتوبيس لكنه وصل إلى (الجورة) وقال أنه سيتوقف هنا لأنه يخاف أن يصل إلى (الجبيلة) وتسقط قذيفة عليه. نزلنا نبحث على أي سيارة أو تاكسي، لكن كل الذي يعرف أننا ذاهبين إلى (الجبيلة) لا يقبل أن يوصلنا ويخبرنا أننا

لن نستطيع دخولها؛ فالمنطقة بها قصف شديد ولا أحد يخرج منها ولا أحد يدخل، كما أنه في طريق السيارات (للجبيلة) يوجد قناص على الجبل إذا عبرت سيارة لا يعرفها يضربها فورًا. وقفنا في حيرة من أمرنا، لا نعرف كيف نتصرف؟ جاء شاب ليرحب "بفارس" وقال له: "كيف جئت؟ وكيف تجلب أهلك معك و أنت تعرف الوضع؟!"

قال له: "لقد رفضوا أن يظلوا في الشام، وخائفين على "أبي وحمزة"."

وقف الشاب وحملق فينا وقال: "أنا سآخذكم معي، وعمري وعمركم عند رب العالمين، ادعوا ربنا يسترها معنا."

وكان معه سيارة مفتوحة من الخلف وركبنا وأجسامنا تنتفض من الخوف وندعو الله. الحمد لله، وصلنا وكنا لا نستطيع تصديق المنظر الذي نراه ونحن

في الطريق؛ لا نستطيع أن نصدق كمية الخراب والهدم التي حدثت، ووصلنا إلى حارتنا وتقريبًا نصفها تدمر، لكن الحمد لله بيتنا كان فيه أثر رصاص في النوافذ فقط، طرقنا الباب، رد "أبي"، قلنا الحمد لله أنه بخير، ولكنه عندما فتح ووجدنا صرخ في وجوهنا وقال: "لماذا أتيتم؟"

رأت أمي منظر البيت مقلوبًا رأسًا على عقب فصرخت وقالت: "أين حمزة؟"

رد "أبي" وقال لها: "لا تقلقي، هو بخير."

ودخلنا البيت وكان مليئًا بالحجارة والغبار، وحال البيت محزن، وبالطبع كان "أبي" في بيت أخي "طاهر"؛ لأن بيتنا كان يطل على الشارع والقناصين والقصف يمكن أن يصيبه في أي وقت. ونحن ندخل إلى بيت أخي "طاهر" رأينا واجهة بيتنا تقريبًا وقعت وخربت، أخذت "أختي" ودخلنا إلى المطبخ، جهزنا

الطعام الذي كان موجودًا وبعدما انتهينا كان لا بد من أن نرتب وننظف البيت من الغبار والحجارة التي كانت منتشـــرة بكل مكان، و"أختي" قالت "لأبي": "ســـآخذ الأولاد و أتوجه لبيت حماتي (بالحو ايجة)؛ لأن الأولاد من صوت القصف والرصاص يفزعون ويخافون ولا يستطيعوا أن يناموا من شدة الخوف."

وبالفعل أوصلها أخي "فارس" إلى هناك واطمأن عليها ورجع لنا سالمًا الحمد لله.

- أين "الحو ايجة" تلك؟

- إنها منطقة ضمن محافظة (الدير)، لكن كانت أكثر أمنًا وفيها حياة لحد ما، وكنا نجلس بالبيت "أنا و أبي وأمي وأخوَاي فارس وحمزة"، وقد تعاهدنا أنا نظل في(الدير) وألا نترك بعضنا أبدًا، فإذا متنا نموت سويًا وإذا ذهبنا إلى أي مكان نذهب سويًا. عندما كنت أرتب و أنظف في البيت كان قلبي يؤلمني وعيني لا تكف عن

البكاء؛ على الحالة التي وصلنا إليها، و أيضًا على الأقارب والجيران الذين يموتون ويتهجرون، ولم أستطع التعايش مع الو اقع الذي يحدق حولنا، لكن نحن مُجْبَرون على كل شيء، مجبرون على أن نبقى، مجبرون على أن نتهجَّر من هنا لهنا، مجبرون على أن نتناول طعامًا واحدًا طوال أسبوع أو شهر، مجبرون على ألا يكون بيدينا شيئًا نفعله. وفى يوم أتذكر أنه كان يوم أربعاء كان الوضع بالطبع سيئ جدًا، طلبت أمي من "أبي" أن يجلب الأوراق المهمة والأموال والذهب وأي شيء ثمين نمتلكه وجوزات السفر ويضعه في حقيبة بجانبها، وقالت له: "أخاف أن يحدث شيئًا مفاجئًا، فلنكن مجهزين شيئًا حتى نخرج بأقل الخسائر."

- ألهذه الدرجة لم يكن هناك أي أمل في إيجاد حل للوضع؟!

- كل ما كنا نراه هو أن القادم أسوأ، ولا نعرف كيف سيكون مصيرنا؟ وبالطبع كان "أبي وأمي" يخرجون يومًا بالأسبوع ويتوجهون إلى عربة الخضار على بعد حوالي عشرين متر من البيت، يجلبان طلبات أسبوع أو أسبوعين، نضعها بالثلاجة لأن كل يوم بوضع مختلف، وبالطبع لا نستطيع أن نخرج وقتما نحتاج لأي شيء إلا للضرورة القصوى، إلا إذا كان الوضع مستقرًا فعندها نحاول أن نخرج نجلب احتياجاتنا ونعود.

انتبه "معتصم" وخياله وعقله مشغولان بكلام زوجته وقصتها عندما دخل النادل "الجرسون":

- أهلًا وسهلًا بكما.

- أهلًا بك.

- هل تَوْدَا أن تشربا شيئًا؟

- ماذا تشربين يا "إسراء"؟

- أريد أن أشرب عصير ليمون.

- و أنا سآخذ قهوة.

- تحت أمركما.

- شكرًا لك.

الزوجة العربية لها بصماتها مهما تغيرت البلاد والظروف.

- قلنا لا تكثر من شرب القهوة يا "معتصم"، و اتفقنا على كوبين فقط في اليوم، اليوم أنت شربت أكثر من ثلاثة أكواب قهوة.

باندهاشة مع ابتسامة من "معتصم":

- أنتِ تحصين ما أشربه يا "إسراء"؟!

- أنا أخاف عليك كثيرًا، والطبيب حذرك من كثرة شرب القهوة، أليس كذلك؟

- بلى، إن شاء الله لن أتخطى الكوبين، المهم الآن أكملي.

بسبب الردود التلقائية من "معتصم" لم تجد "إسراء" حلًا سوى الاستكمال:

- كنا نجتمع تقريبًا طوال اليوم في البهو، الكل جالس ولا نفعل شيئًا، وفي كل يوم تقريبًا يتكرر الحال وميعاد الضرب، كنا نعرف أن وقت العصر يأتي الطيران ويرمي ببراميل متفجرات، وتتحول الأجواء إلى سواد من الغبار، ويصدح الأصوات والصراخ من الأهالي.

- يا الله! اللهم احرق قلوب الظالمين.

- كانت قطع الخشب والحجارة تدخل على بيتنا والغبار، وفى إحدى الضربات كنا كلنا موجودون ما عدا "حمزة"، والبراميل ضربت، "أمي" تنظر حولها لم تجد "حمزة"، ظلت تصرخ وتبكي لأن الغبار في كل مكان ولا نستطيع أن نرى، وهي ظنت أن "حمزة" ذهب إلى بيتنا في أول الحارة، وأن البراميل سقطت فوق

البيت، لكن الحمد لله "حمزة" قال: "أنا هنا في البيت، كنت في الغرفة التي فيها الشرفة لأرى أين سقطت البراميل." سأله "أبي": "هل نزلت فوق بيتنا؟"

قال له: "من كثرة الغبار والتراب لم أرَ شيئًا، ننتظر نصف ساعة حتى ينقشع الغبار ونرى." بعد قليل وجدنا أن البراميل نزلت فوق مدرسة اسمها (البعاجين) كانت خلف بيتنا، و"أمي" قالت: "لن نظل هنا مرة أخرى، لن نقدر على هذا الحال كل يوم!"

وقال "طاهر": "بما أن البراميل نزلت في الحارة التي خلفنا، فمن الممكن أن تنزل غدًا في حارتنا."

وهنا "أبي" أصبح تحت الأمر الواقع وقال: "فليجهز الجميع بعض الأغراض حتى نستطيع أن نغادر قبل أن تُنصَب الحواجز ولا نستطيع المغادرة."

لكن "حمزة" قال: "أنا سأذهب إلى (القصور)." وهي

منطقة أيضًـــا (بالـدير) ولكن أكثر أمانًا، ونحن قد انتوينا أن نذهب إلى (الحســكة)، و أنا قلت لأبي: لماذا لا نذهب مع "حمزة" إلى القصور؟ هي منطقة لا يوجد بها اشتباكات، والحياة طبيعية فيها إلى حد كبير.

قال: "حمزة سيقيم مع أصدقائه."

قلت له: نستأجر بيتًا.

قال: "نحن ســنذهب إلى بيتنا الصــغير (بالحســكة) ونقيم فيه حتى نرى هل ستستقر الأوضاع أم لا؟"

- أكان عندكم بيتًا (بالحسكة)؟

- نعم، كان بيتًا صغيرًا، كان قد اشتراه "أبي" منذ مدة ولم نكن نقيم فيه. وبالفعل توجهنا إلى (الحســكة)؛ وهي كانت تبعد حوالي ثلاث ســاعات عن منطقتنا، وبالفعل لم يكن فيها ضرب ولا أي شيء، ولكن وسائل الحياة معدومة؛ لا يوجد كهرباء ولا غاز و أيضًـا الأكل كان أشـياءً معينة، حتى الخبز لم يكن متوفرًا بسـهولة

بل يجب أن نقف في الطوابير على الأفران حتى نستطيع أن نشتريه، لكن نحن مجبرون، وبالطبع كنا في البيت "أنا وأمي وأبي وأخي فارس وأخي طاهر وزوجته وأولاده"، لكن البيت كان ثلاث غرف، كان يسعنا، لكن كانت الأغراض لا تكفينا، وكنا نحتاج أشياءً كثيرة؛ يعني لا فُرُش ولا سجاد ولا غطاء، وفوق كل هذا الكهرباء كانت تأتي ساعة وتنقطع ساعة، وبعد مدّة قرر "طاهر" أخي بعدما رأى الوضع أن يستأجر بيتًا بجانبنا؛ فالبيت مزدحم، وقرر أخي "فارس" أيضًا أن يغادر إلى (الجبيلة).

- أيعني ذلك أن الوضع كان آمنًا، لكنه أصعب كثيرًا في المعيشة؟

كعادة "إسراء" بعدما يوقفها "معتصم" تفضل عدم قطع حديثها وتكمل:

- ذات يوم كنت مريضة جدًا ولا أقدر على التحرك من

السرير، كنت أعاني من صداع ورشح، ولكن لا أنسى أبدًا هذا اليوم، كان تقريبًا يوم الثلاثاء، كنت نائمة على السرير في غرفة "وأبي وأمي وأخي طاهر" في الغرفة التي فيها التلفاز، وفجأة سمعت صراخ "أمي وأبي وطاهر" يقولون: "حسبنا الله ونعم الوكيل."

بصوتٍ عالٍ، و"أمي" تصرخ، قلبي انقبض ونزلت من على السرير وأنا لا أستطيع أن أقف من شدة التعب، وصل بي الأمر أنني لم أستطع أن أقف ثابتة على قدمي، كنت أزحف على الأرض وأمسك في أي شيء أمامي، وأستند على الحائط حتى وصلت إلى الغرفة التي يخرج منها الصوت وقلت لهم: ماذا حدث؟

وأمي من كثرة الصراخ اختفى صوتها، وتقول لي: "التلفاز؟!"

نظرت للتلفاز فوجدت أن الجيش قصف (القصور) وتقريبًا دمرها كليًا، والشباب والأطفال والنساء

والشيوخ كله مُرتَمي على الأرض، وفجأة أتت الصورة التي كان عليها صراخ أهلي، عندما رأيت اللقطة صرخت بصوت عالٍ وفقدت الوعي، هرول إلي "أخي" وظل يحاول إفاقتي فقلت له بعدما أفقت: "حمزة!" وأسمع صوت أمي تقول لأبي: "أصدقتني؟ "إسراء" هي أيضًا عرفت أنه حمزة!"

لكن أنا عندما رأيت المنظر-بعيد الشرعن "حمزة"- كأنه هو؛ الجسم والهيئة حتى لون اللحية، انقبض قلبي كثيرًا؛ الجثث كانت على الأرض و"أنا وأمي" ظننا فعلًا أنها جثة "حمزة". "طاهر" أخي قال: "لا تخافوا، أنا سأذهب إلى (القصور) لأطمئن على "حمزة"، و أيضًا لأطمئن على "فارس"، لأن القصف أيضًا كان في (الجبيلة)."

دقت الساعة الرابعة مساءً ونعرف أن الطريق (للدير) لن يكون أمانًا، أكيد الحواجز انتصبت

وسيبدأ الضرب والقصف، قالت له أمي: "و أنت أيضًا ستذهب ولن تعود؟!"

قال لها: "قولي يا الله، وإن شاء الله لن يصاب أحدنا بشيء وسنعود جميعًا."

وبهذا اليوم لم نترك طريقة، كنا نريد اتصال أو أي شيء يوصلنا لأخوتي، والناس اجتمعت عندنا، أقاربنا وأصدقاء أبي، والكل أتى يقول: "اهدأوا، إن شاء الله لا يكون ابنكم".

اندهش "معتصم" ولم يقدر على الصمت.

-ماذا؟!! الناس أيضًا كان لديهم ظن أنه حمزة؟!

- نعم بالطبع، ونحن كنا نموت كل دقيقة، حتى نزلوا إلى السوق وفتحوا الإنترنت على الموقع يبحثون في أسماء الشهداء، ويقولون لنا:

"والله لا يوجد اسم حمزة، توكلوا على الله."

ونحن قلوبنا تشتعل، وبقينا هكذا حتى انتصف

الليل، كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل عندما أتاني اتصالًا على هاتفي وكان رقمًا غريبًا، وجدته "طاهر" يقول: "إسراء، اطمئني، فها هما "حمزة وفارس" بجانبي، والله لم يصبهم شيء!"

أخذ "معتصم" أنفاسه بعدما كانت تقترب أن تخرج من شدة الموقف الذي تنقله "إسراء" وكأنه يحدث حالًا وليس من بضع سنوات.

- "الحمد لله هو بخير، وفي الصباح سنكون عندكم."

قلت له: أكيد؟

قال: "اسمعي صوته.." وهنا انقطع الاتصال.

- "يا الله! هل الأمر يحتمل هذا القلق؟!" صرخت أمي.

- طاهر يقول والله لم يصبهم شيء. قالت لي: "أسمعتِ الصوت؟"

قلت لها: لم أسمع، لكن يا "أمي" لماذا يتصل لو أن "حمزة أو فارس" قد أصابهما شيء؟ توكلي على الله

والصبح يكونون عندنا.

بقينا على هذا الوضع؛ جالسين حتى الصباح، وعندما قاربت الساعة التاسعة تقريبًا دق الباب معلنًا وصول أخوتي.

- الحمد لله!

- أخذنا نضم "حمزة" ونبكي، وأمي تضربه بيدها تقول له: "موتني!"

يقول لها: "يا "أمي"، والله ليس بي شيء."

- وتمسك "فارس" وتبكي والحمد لله فات هذا اليوم الأسود على خير، وبعدما استراحوا من إرهاق السفر والطريق أخذ أخي "طاهر" يحكي كيف دخل الدير والطرقات مغلقة، يقول: "أوقفت سيارة وقلت للسائق أن يوصلني للدير، فأوصلني إلى أقرب نقطة وأخبرني أنه لن يستطيع السير أبعد من ذلك فطلبت منه أن يأخذني لقرية على النهر اسمها (حطلة).

عندما وصلت وجدت مجموعة من الجيش الحر فقلت لهم: "أخي في (القصور) و"أمي" سَتُجَنُّ من قلقها عليه؛ لأنها رأت صورة على التلفاز تقول هذا ابني، لقد تركتها بحالة صعبة جدًا، ولا بد أن أدخل (الدير) فقط لأطمئن أن أخوتي بخير." تعاطفوا معي وقالوا: "اصبر حتى تكون الساعة التاسعة ليلًا فنجعلك تعبر من خلال النهر إلى الجانب الآخر، وسنر افقك، أين يقيم أخوك في القصور؟ سنبعث الآن لشخص من جماعتنا ليبحث عنه."

"إسراء" التي تعرف بالإحساس الزائد والطيبة المفرطة، تعلم تمام العلم أنَّ هذه الأحداث قد انتهت، ولكنها مع تذكرها مرةً أخرى تتأثر وكأنها تعيش فيها الآن؛ لذا بدا عليها التعب من تذكُّر الأحداث القديمة، وقال "معتصم":

- تفضلي أكملي.

ابتسمت "إسراء"، ولكن يبدو عليها الحزن من جرّاءِ القصة الأليمة:

- هل يمكن أن نكمل بالبيت؟ لأن جسمي برد، وأخاف البنت تبرد.

- أكيد حبيبتي، هيا نرجع إلى البيت.

- نادل "جرسون"، لو سمحت الشيك.

وفي بداية يوم جديد بدأ حديث الزوجين على فراشهما، قال معتصم:

- فصل الشتاء يبدو أنه سيكون شديد البرودة هذا العام.

- نعم، بالفعل يا "معتصم".

- كم الساعة؟

- حوالي السابعة والنصف.

- إذًا هيا بنا للعمل.

- أنتظرك لتأخذ بيدي.

- نفس الذي أنتظره!

- "معتصم"، كُفَّ عن الكسل وانهض.

- انهضي أنتِ يا بطلة.

- لا، أنت الرجل، قم وخذ بيدي، أشعر أنني إن نهضت من تحت الغطاء سأتجمد من الصقيع.

- هو نفس الإحســـاس عندي، كلّما أحاول أن أخرج قدمي من تحت الغطاء أخاف وأرجع في كلامي!

ضحك الزوجان ضحكةً عالية صافية والمزاح مستمر بينهما.

- هو نفس الإحساس عندي.

- حسنًا، فلنكف عن الكسل بجدية.

- لدي فكرة أفضل "معتصم".

- ما هي؟

- نحن ننام، ولا نذهب لأعمالنا حتى يتحسن الجو.

- فكرة جميلة، لننفذها، أنا مو افق!

- ومن يطعمنا؟ حتى لو قدرنا على الجوع فمن يراعي المسكينة ابنتنا؟

- ما هذا يا "إسراء"؟! أنتِ تناقضين نفسك؛ تخترعين الفكرة وترفضينها بنفس الدقيقة! ما هذا؟! سأنهض أنا.

- هكذا هم الرجال؛ لا بد من العين الحمراء لينفذوا!

- هكذا إذًا! حسنًا، سأعود للنوم ولن أذهب للعمل، والله معكِ أنتِ و ابنتك.

وبعد صراع طويل الساعة دقت الثامنة ومضيا إلى أعمالهما. وبعد العصر وصلا البيت وحضرا الغداء كالعادة، وقرر "معتصم" أن يعرف جزءًا كبيرًا من القصة، لكن "إسراء" كانت ترفض بحجة تذكرها للماضي الأليم والأحداث المؤلمة، ولكن إصرار "معتصم" كان أقوى من أسباب "إسراء"، وبالفعل بدأ الحُوَار من جديد.

- ذكرني إلى أين توقفنا المرة الماضية؟

- هل أنتِ دائمًا هكذا لا تذكرين؟!

- نعم، فأنت من يريد أن يعرف.

- حسـنًا، لقد توقفنا عندما كان أخوك طاهر يحكي لكم كيف توصل لـ "حمزة وفارس" في (الدير).

- يقول: "كانت عندهم أجهزة اتصال لاسلكية وأخبروا الجماعة (بالقصور) أخوتي." ويقول: "عبرنا النهر بقارب وعبرنا جسرًا مكسورًا، وجعلوني أحمل معهم أسلحة."

الاندهاش يخيم على ملامح "معتصم".

- ويقول: "كان لديهم طرقًا خاصة، دخلوا القصور فذهبت إلى بيت صديق "حمزة"، لم يكن من أحد في البيت، بعدها اتصل أحد الشباب بهم يقول لهم: "رأينا حمزة هذا معنا."

ذهبت لمكانه وقابلته فقال لي: "ماذا أتى بك؟"

قلت له: "أمك اعتقدت أنك مِتَّ." وسألته عن "فارس" فقال: "هيا لنذهب إليه ونحضره."

قال "حمزة": "لقد كنا بنفس مكان القصف، لكن قبل أن تسقط القذيفة هربنا لبيت صديقنا الآخر، والحمد لله نحن كلنا بخير."

ويقول طاهر: "عاد الجيش الحر وعبروا بنا النهر للجانب الآخر، وأعطوني جهاز اتصال وطلبوا مني أن أخبركم أننا بخير. ونحن بجانبك الآن يا أمي، هل ارتاح بالك الآن؟"

قالت أمي: "لا يبتعد أحد منكم بعيدًا عني مرة أخرى ولو لدقيقة واحدة."

و"حمزة" يقول: "أريد أن أفهم لماذا ظننتم أنه أنا؟"

قالت له أمي: "شاهد المقطع على التلفاز أو الإنترنت و أنت ستعرف لماذا؟" وبالفعل شاهد المقطع ثم قال:

"يا للهول! والله معكم كل الحق، فها أنا جالس بينكم وظننت أنني هو؛ فأنا أشبه الشاب الله يرحمه."

- ومضت الأيام والوضع (بالحسكة) كان صعبًا، كان أخي "فارس" يذهب كل يوم إلى الفرن يقف في الطابور من الصباح للمساء، حتى يؤمن الخبز، وكانت المياه تأتي كل أسبوع مرة وأحيانًا تنقطع لمدة أسبوعين متلازمين، كنا نخزن المياه ونغسل الملابس على أيدينا، و اقترب فصل الشتاء ونحن لا نملك شيئًا نرتديه بالشتاء، كلنا كنا بحاجة لأغراض أساسية، وأكثر شيء كنا نخاف عليه هو أولاد أخي، لأنهم بحاجة الملابس لتقيهم برد الشتاء، يحتاج كل منهم لأكثر من قطعة ملابس فالجو شديد البرودة، حسبنا قيمة الأغراض من ملابس وبطانيات وألحفة وسجاد، ولكن ما نملكه من أموال من المستحيل أن يكفي؛ لذلك لا بد من بيع بعض الذهب لأننا كثيرون ولا نملك ولا

قطعة ثياب واحدة. قالت أمي: "نحن مجبرون أن نشتري ملابس الآن." ونحن نتحدث بالموضوع دخلت إحدى الجارات قالت: "أنا لدي بطانيات وألحفة لا أستعملها، أتقبلون أن أعطيها لكم تستعملونها؟ ووقتما يحين وقت رحيلكم أعيدوها لنا، فنحن أهل." ولكن أبي قال: "لا، شكرًا لكِ، سنذهب لنشتري ما نحتاجه." قالت الجارة: "لماذا لا تعتبرني ابنتك؟ و أنتم أهلي، و افرض أنني أتيت إليكم وطلبت منكم بطانيات، ألن تعطيني؟" قال لها: "والله كلّ ما تحتاجينه." فأخبرته أنها ستحضرهم وبالفعل ذهبت لبيتها وجلبت لنا الأغراض هي وزوجها، والحمد لله حُلَّت مشكلة أغراض البيت، بقيت مشكلة الثياب فذهبنا واشترينا الأشياء الضرورية فقط، وأحضرت الجارة ثياب صغيرة للأولاد أيضًا، لكنني لم يعجبني الوضع أبدًا؛ لأنه كيف سنحيا بهذه الطريقة؟ ما زال

يلزمنا أغراضًا، قالوا سيكون هناك هدنة وسيتوقف الضـــرب على مدينة الدير بأيام العيد وتقدر الناس تدخل بيوتها.

قلت: إذًا نخرج نشتري أغراضًا ونعود.

أمي قالت: "مستحيل! لا نريد شيئًا."

قلت لها: أمي، لن نتحمل، فنحن مجبرون؛ لأن الأولاد يحتاجون لملابس حتى لا يقتلهم البرد، وإذا بعنا ذهبنا الآن كيف سنعيش بعد ذلك؟

قالت: "يفرجها ربك."

قلت لها: أمي، لن يذهب أحد من الشـــباب، ســـأذهب أنا وحماة أخي طاهر، ســـنذهب لنشـــتري كل ما يلزمنا ونعود.

قالت: "أغلقي الموضوع."

و أنا كنت أريد أن أذهب بأي شكل من الأشكال. المهم، ليلة العيد أخبرتني حماة أخي وقالت: "غدًا صـــباحًا

سأذهب وسيذهب معي أناس آخرون، أتذهبين معنا؟" فغضبت أمي وتعصبت علي وقالت: "لن تذهبي." و أيضًا سألني أخوتي: "إلى أين تريدين الذهاب؟" قلت لهم: إلى (الدير).

فقال أخي: "كيف هذا؟ من قال لكِ أننا سنسمح بذلك؟ حتى لو نُفِّذَت الهدنة نحن الشباب من سيذهب."

وأمي: "أرأيتِ ماذا فعلت؟ تريدينهم أن يذهبون و أنا ما كدت أصدق أن يبقون إلى جواري."

قلت لهم: سأذهب أنا والفتيات والنساء، لا يوجد ضرر علينا ولن يؤذينا أحد.

ولكنهم رفضوا، فصمتُّ وأخذت في البكاء من قهرتي على وضعنا ووضع أهلي، ولا يوجد حل، ولا يقبلون أن أذهب لأساعدهم. في اليوم التالي أتى أخي فارس اتصالًا من صديقه يخبره أنه هناك هدنة بالفعل وكل

الناس تذهب وتشتري احتياجاتها، فطلبت من أخي أن أذهب ولكنه رفض وقال أنه هو من سيذهب. قلت له: خذني معك إذًا.

و افق فذهبنا لأمي و أبي وأخبرناهما أننا ذاهبان وطلبنا منهما الدعاء لنا، لكنهما أخذا في الصراخ والبكاء فأعطيت أمي الذهب.

ونزلنا ركبنا سيارة وتوجهنا نحو الدير، وصلنا عند أول الدير بمنطقة (الحويقة) عند جسر السياسية، وكان هناك أول حاجز للنظام وكان فيه أناس كثيرة، سِرنا حوالي كيلومتر حتى وصلنا أول حاجز من الطريق الذي يمر على مناطق الدير، وتكلمت مع أخي أقول له: إذا لم نقدر أن نعبر وبقينا هنا فلنذهب

لبيت عمة قريبة بالمنطقة، وبيت فلان وبيت فلان.

اندماج "معتصم" في القصة لم يكن أقل من اندماج "إسراء" في حكاية تفاصيلها:

- وهل قدرتم أن تعبرون؟

- نعم، الحمد لله، وصلنا الحاجز، وسألنا أحد العساكر: "إلى أين؟"

قلنا له: إلى (الحويقة) حيث بيتنا. فقال: "تمام."

طبعًا الحاجز بنفس المنطقة (الحويقة) والمناطق التي كان يجب علينا أن نذهب إليها؛ (الجبيلة) أو (الحميدية) وهي مناطق تابعة للجيش الحر. المهم، عبرنا الحاجز وأكملت سيرًا أنا وأخي، ونحن بالطريق مررنا بحارة، ومن بعيد ظهر أولاد يلعبون، وهناك محل مفتوح من بعيد يشتري منه الأولاد بطاطس شيبسي وحلوى. قلت لأخي: شاهد ذاك المنظر، بالرغْم من الحرب إلا أنك ترى الأولاد مسرورين كأنه يوم عيد!

بينما أتحدث إذ سمعت صوتًا قادمًا من بعيد من ناحية الأولاد يصرخ: "خالة إسراء!"

والأولاد يركضون ناحيتنا، انتبهت أقول: من؟

وجدتهم أولاد أختي أمل، تعرفوا علي من بعيد، منذ رأيتهم لم تسعني الفرحة فأخذت أحتضنهم و أقبلهم و أنا أبكي ثم سألتهم كيف جاءوا؟

قالوا: "وصلنا إلى بيت عمتي نحن وجدي." سألتهم: أين أمكم؟ قالوا: "ظلت (بالحويجة)."

وركضوا أمامنا ينادون جدهم وعمة أبيهم ليستقبلانا، خرج جدهم سلم علينا وقال: "الحمد لله أنكم بخير." سألت عن أختي قال: "هي بخير الحمد لله، اذهبي لترينها."

قلت لهم: دعونا نحاول أن نعبر (الجبيلة) الآن ثم نمر عليها ونراها.

قالوا: "تمام، اذهبا أنتما و انتبها على نفسيكما؛ لأنه صعب أن تذهبا إلى (الجبيلة)، لا بد من أن تعبرا من ناحية الجسر وهناك يوجد قناص، فإذا ضرب ينبغي

أن تعودا ولا تمرا."

قال ابن عمة زوج أختي: "أنا أعرف الطريق، أنا سأذهب معكما، وإن شاء الله خير." بدأنا سيرنا وقبل الجسر بدقيقتين رأينا الناس تصرخ وتركض. قلنا: ماذا يحدث؟

قال: "لا أحد يعبر اليوم؛ القناص ضرب على امرأة وهي تعبر الجسر، والله ستر أنها لم تمت، بهذا الشكل لا يوجد عبور اليوم، فلنعد غدًا."

ورجعنا إلى بيت عمة زوج أختي، ثم ذهبنا نحن ووالد زوج أختي والأولاد إلى (الحويجة) إلى أختي، (الحويجة) قريبة جدًا من (الحويقة) حوالي عشر دقائق بالسيارة، وصلنا ورأينا أختي فابتهجت لرؤيتنا.

- جلسنا وبكينا وسألنا عن أخبار بعض، ثم اتفقنا أن نصلي الفجر ونخرج، وعندما نرجع نبعث لأختي حتى تأتي معنا إلى الحسكة لترى أهلي؛ زيارة يعني مدّة

وترجع، في الصباح التالي خرجنا نحن والشاب ابن عمتهم، وصلنا الجسر فقالوا لنا: "لا بد أن تحاولون السير بسرعة ولا تنظروا لا يمينًا ولا يسارًا، وامشوا خلف بعضكم." ونحن في الطريق قابلنا ناس ونحن خلفهم، والحمد لله كان الوقت مبكرًا لم يضرب القناص، وعبرنا الجهة الثانية، استقبلنا الجيش الحُروسألنا: "إلى أين؟"

قلنا له: إلى (الجبيلة).

قال: "المنطقة خطر، وفيها قصف."

قلت لهم: والهدنة؟!

قال: "هدنة، لكن (الجبيلة) بالذات القصف فيها مستمر."

قلنا: "سنعبروأمرنا إلى الله."

قال: "إذا مضيتم بسرعة فستعودون بعد ربع ساعة على الأكثر."

ومضينا والدير كانت تحزن؛ البيوت مقصوفة، والأرض كلها أحجار وتراب وأغراض ناس. وصلنا (للجبيلة) ودخلنا بيتنا، لكنها أول مرة أرى بيتنا بهذا الشكل؛ كان معتمًا بشدة، توجهت مباشرة لغرفتي وأخذت لكل أفراد عائلتنا أغراضًا، وذهبنا أيضًا لبيت أخي؛ جلبت أغراضًا للأولاد. أصبح معنا ثلاث حقائب وَسَط وأكياس فيها أحذية، أخذنا نفكر كيف نحمل الأغراض فقد كانت كثيرة وثقيلة؟ قلت لأخي: لنمر على بيت جدي -كان قبل بيتنا بحارة- لنجلب أغراضًا لجدتي. قال الشاب الذي معنا: "سأنتظركما أنا هنا بجانب الأغراض ريثما تذهبا، ولكن ارجعا بسرعة."

وصلنا بيت جدي فوجدنا السقف سقط من الغرف، ومن الصعب استخدام الدرج من كثرة الضرب والتراب، وتوجهت إلى غرفة وأخي إلى غرفة؛ أنا أريد أن أجلب أغراضًا لجدتي وأخي يريد أن يحضر بطاقة

الهوية لابنة عمتي، وفجأة نزلت قذيفة على البيت وصرخت بأعلى صوت:

- يا الله!

أنا أصرخ: فارس! أأنت بخير؟ وهو يصرخ: "إسراء! أأنت بخير؟"

قلت له: أنا بخير.

فخرجنا نركض حتى وصلنا للشاب، ونريد أن نذهب، وأصوات الضرب تزداد، والقصف والقذائف تسقط، ولا نعرف إلى أين يجب أن نذهب؟ ومر رجل يركب دراجة نارية فقال: "ما الذي أتى بكم إلى هنا؟"

قال له أخي فارس: "خذ أختي معك و أنا سأتدبر أمري."

و أنا من غيروعي ركبت خلف الرجل وحملت جزءًا من الأغراض معي، وذهب بنا، وبعدما مضى قال لي: "إلى أين أوصلك؟" قلت له: لا أعرف؟

قال: "سآخذك للجسر الذي عبرنا منه، أكيد أخوكِ سيصل إلى هناك."

- "معتصم": أنا عقلي لم يعد يستوعب هذا الكلام، حتى أنه لا يوجد كاتب يمكنه أن يتخيله ويكتبه، سبحان الله!

أكملت "إسراء":

سألني: "ألا يوجد غير هذا الطريق لتعبروا من خلاله؟" قلت له: بلى.

و أنزلني عند الجيش عند الجسر، وقال لهم: "هذه أمانتكم حتى يأتي أخوها." قالوا: "إن شاء الله."

لكن كان قلبي يشتعل من نيران الخوف أن يصيب أخي شيئًا، بقيت هكذا أكثر من ساعة أراقب الطريق و أقول لهم أني خائفة على أخي، فيجيبوني: "توكلي على الله." بعدها أتى أخي هو والشاب.

الأحداث تخيم على تفكير الزوج المستمع والزوجة

المتحدثة.

- الحمد لله، أتعرفين؟ أنا من شدة الاندماج أشعر أن الذي تحكينه يحدث حالًا، مع أنني أعلم تمام العلم أن أخوتك الحمد لله أحياء وبصحة جيدة، ولكن بكل موقف يُنذِرُ بالخطر أشعر أنهم يمرون بنفس الموقف في هذه اللحظة.

- الحمد لله، وكان لا بد أن نعبر إلى الجانب الثاني من الجسر؛ مما يعني أننا لا بد أن نمر من عند القناص، كان هناك ناس قد عبرت أمامي فحملت أنا جزءًا من الأغراض، توكلت على الله وعبرت من عند مكان ضرب القناص بخير، وظل شيء يسيروينتهي الجسر، أنا أمنت على نفسي لكن أخي خلفي يحمل عربة يد بها بعض الأغراض، وكان على الجسر في المكان الذي يضرب فيه القناص، والجسر فيه أجزاء مكسورة وقد وضعوا خشبة نعبر عليها، لكن كان صعبًا على

العربة أن تعبر، "أخي" يحتاج لأحد أن يساعده، وعندما مرعند مكان الضرب وقفت العربة، وحاول أن يحمل العربة فرأيت المنظر كاد عقلي أن يطير خوفًا من أن يصيبه القناص فرجعت لأساعده، رآني الجيش من بعيد وصرخوا بي أن أذهب ولا أرجع وأن أنتبه، وأنا أقول لهم أن أخي بخطر.

رأيت واحدًا من الشباب زحف إليه وساعده، وعبر "أخي" الحمد لله بخير، أصبحنا تقريبًا بأمان، الأغراض ثقيلة، أتى ابن عمة زوج أختي راكبًا دراجة نارية، قال لأخي: "تعال وحمل جزءًا من الأغراض." وصلنا لأقرب نقطة؛ يعني حوالي ثلاثة كيلومتر، وقلت له: اذهب لأمل أختي وأخبرها أن تأتي فسننتظرها. قال: "حاضر." وذهب ليخبرها، وتركني "فارس" بجوار الأغراض وقال:

"سأذهب وأحاول أن أجد سيارة أو أي وسيلة

مواصلات تعيدنا (للحسكة)، وبعد حوالي ساعتين تقريبًا أو أكثر أتت تحمل أغراضًا هي الأخرى وبطانية لأمي لتلتحف بها، وجلب أخي سيارة وسافرنا بها (للحسكة)، وكان أهلي ينتظرونا على أحر من الجمر، عندما رأونا ارتاحت قلوبهم و ابتهجوا، كان زوج أختي معتقلًا ومقطوعة أخباره، ولكن ذات مرة كنا نعرف أنه بسجن حلب.

الآن يبدو أن عقل "معتصم" لم يتحمل استيعابًا لهذا الكم الهائل من الأحداث القاسية والعجيبة والقريبة من الخيال، وقال "معتصم":

- يكفي هذا اليوم يا "إسراء"؛ لقد هربت الدماء من عروقي مما تحكينه.

ضحكت "إسراء":

- ألست أنت من تريد أن تعرف؟ فلتتحمل إذًا.

- أكيد سأتحمل، فكل دقيقة يدفعني الفضول أكثر

لأعرف كل شيء عنك حتى أصل لكيف حبيبتي تعلمتِ التركية وأخذت الجنسية؟

- هذا موضوع آخروقصة ثانية.

- وماذا يشغلنا غير بعضنا؟ المهم، سنكمل غدًا حكاية سجن زوج أختك بحلب.

نَبْذَة مختصرة "حلب"

هي أكبر المحافظات السورية من حيث أعداد السكان، ويُقدر عدد سكانها حسب تعداد 2011 حوالي 4.850 مليون نسمة، ومساحة حلب حوالي 18.50 كم2. تقع حلب شمال سوريا، وتنقسم المحافظة إلى 8 مناطق، وتعد أهم مركز صناعي في سوريا إضافةً إلى أهميتها التجارية والزراعية، وتعد أيضًا من أقدم وأشهر مدن العالم. حلب من المناطق الغنية بالآثار والمو اقع الأثرية التي تعود لحضارات من أقدم الحضارات في العالم، وتعود بعض المناطق في حلب إلى ثمانية آلاف عام، ومرت على حلب حضاراتٌ كثيرة منها؛ الآكاريين، البابليين، الآراميين، الرومان، الإغريق وغيرها...

ومن أهم المناطق الأثرية في حلب:

- سيروس النبي هوري.
- قلعة حلب (التي بناها الإسكندر المقدوني).

- الجامع الأموي الكبير.
- قلعة نجم.
- قلعة دير سمعان.
- معبد عين دارة.
- أبواب حلب (مثل باب أنطاكية وباب النصر).
- برج الساعة.
- أسواق حلب الشرقية.
- الجسور الأثرية.
- التكايا.
- الكنائس الأثرية.

ومن أهم مدن حلب:

- مدينة الباب.
- مدينة منبج.
- مدينة عين عرب.
- مدينة أعزاز.

- مدينة السفيرة.

السياحة في حلب:

حلب المدينة البديعة، عاصمة الشمال السورية، إحدى أهم مدن الشرق على الإطلاق، تمتد وتتنوع فيها التضاريس من السهول إلى الجبال، ومن الأراضي الزراعية إلى الغابات الطبيعية الرائعة. في حلب عددٌ من المصايف الرائعة والشلالات وعدد من المناطق.

وأيضًا في حلب عدد من الفنادق الممتازة من مختلف الدرجات، وتنتشر المطاعم والكازينوهات ومنتشرة بكافة المستويات، وفي حلب مطار حلب الدُّوَليّ.

عاد الزوج من العمل كالمعتاد في نفس الميعاد، ولكن يبدو على ملامحه تعكر المزاج، مزاج اليوم يبدو عليه الحزن من حدثٍ معين.

بعد استقبال الزوجة سألته:

- ما بك يا "معتصم"؟ لماذا مزاجك معكر؟

- لا شيء.

- كيف لا شــيء؟ وجهك يبدو عليه أنه حدث معك مشكلة، لماذا تخبئ عني؟

- قلت لك لا شــيء يا "إســراء"، من فضــلك اتركيني الآن!

- حســنًا، ولكن ارتدِ ثيابًا أثقل فالجو بارد جدًا، ويقولون موجة ثلجية مستمرة لأكثر من أسبوع.

- يكفي يا "إسراء"، أنا أرتدي ثيابًا بالفعل.

- سأذهب.

"إسراء" يشغلها التفكير في حال "معتصم" المتغير عن

العادة، وخاصة أنه يرفض أن يخبرها ماذا حدث معه، القلق يشغلها كثيرًا.

"معتصم" ترك مشكلته وأخذ يفكر... لماذا تكلم مع "إسراء" بالطريقة التي تزعجها؟ "معتصم" خرج من غرفته وذهب إلى المطبخ.

- "إسراء".

- نعم.

- أنا متأسف إذا كنت تكلمت بطريقة...

- لا تكمل "معتصم"، أنا أعلم أن هناك سبب أو مشكلة كبيرة حدثت معك، و أيضًا متيقِّنة أنك كنت تأتي وتحكي لي، ولكن تركتك مثلما تريد.

- و أنا أتيت لك بالفعل.

- أخبرني بالسبب الذي قلب أحوالك.

- الموجة الثلجية.

- نعم الجو صقيع جدًا، لكن أين المشكلة؟

- الموجة أوقفت الاستيراد والتصدير من الموانئ بسبب سوء الأحوال الجوية، والالتزامات التي على الشركة إذا لم تنتهي بعد غد فمن المفترض علينا أن ندفع شرطًا جزائيًا للشركة التي تنتظر شحناتها تخرج من عندنا، وإذا عرفوا أن الشحنة ستتأخر في الخروج -وأكيد ستتأخر بالوصول إليهم- فبالتالي سيطالبون بفسخ التعاقد، ومن ثم الشرط الجزائي.

يا الله! لكن بأمر الله الأوضاع لن تستمر لأكثر من أسبوع وتعود الحياة لطبيعتها.

- يا "إسراء" الشركة التي ستنتظر بضاعتها لا تعرف طقس، تقول اتصرف حتى لو البضاعة ستصلهم بالطيران، وطبعًا نحن لا نقدر على مصاريف الشحن بالطيران.

- ووجدتم حلًا أم لا؟

- هناك مشكلة أخرى أكبر.

- ما هي؟ لا حول ولا قوة إلا بالله!

- أخي وأمي.

- ظهر الارتباك على "إسراء"

- ما بهما؟

- أخي عندما عرف بالمشكلة قال أنا آخذ نسبتي في الأرباح فقط، وبعدها أمي كلمتني على الهاتف المحمول وقالت نفس الكلام: "إن أخاك يُكون نفسه، ولا يقدر أن يتحمل في الخسائر التي ممكن أن تحدث من جرّاءِ وقف حركة الشحنات." من هذا الحديث نفسيتي تعبت كثيرًا.

- لا تحمل همًا، الله يدبرها من فضله.

- لا أعلم كيف أتصرف؟ الوضع صعب جدًا.

- أنا بجانبك حبيبي، لا تقلق.

- إن شاء الله، أنا سأدخل أنام قليلًا.

"معتصم" دخل على السرير لأكثر من ساعتين، لا نوم

ولا راحة لكن تفكيروحيرة من الأمر، الوضع استمر أكثر من ثلاث أيام، و"معتصم" تلقى اتصالًا أنَّ الشركة فعلًا ألغت الاتفاق وتطالب بالشرط الجزائي، الوضع في أزمة كبيرة بالنسبة ل"معتصم".

- الحمد لله على كل حال، أنا كنت متوقعًا حدوث شيء يفسد فرحتي بعد العمل مع هذه الشركة.

- لماذا تقول هذا؟

- لأن بالفعل هذا الذي حدث، سبحان الله، قررت ألا أعطي الموظفين أجرهم، و أيضًا أجلت دفع تأمين الشاحنات، والمبالغ تركتها في البنك منذ وقت توقيع الاتفاق، و أيضًا أخي لم يأخذ منهم شيئًا؛ يعني الحمد لله مبالغ الشرط الجزائي تقريبًا جاهزة، المشكلة أن اسم وسمعة الشركة أكيد سيتأثرا في السوق، كما أن أخي يطالب بالأموال.

- الحمد لله على تدبيره، و أيضًا على حسن تصرفك،

إنك تستطيع أن تعطل الأموال بالبنك لأي ظروف، أنت سدد الشرط الجزائي وبعدها تفكر بهدوء كيف ترجع للعمل؟

- بالتأكيد هذا الذي سيحدث، أنا قررت أن أهم وأول شيء هو تسديد الشرط الجزائي، وبعدها نقفل الشركة نهائيًا أو أترك نصيبي.

اندهشت "إسراء":

- لماذا؟! ما هذا الذي تقول يا "معتصم"؟

- مثلما قلت لكِ؛ فأنا أعمل و أتعب، وفي الوضع الصعب لا مساندة من أصحاب الشأن معي.

- وكيف سنصرف على أنفسنا ونسدد التزاماتنا؟

- لا تقلقي، أنا الآن معي خبرة كبيرة بالمجال، سأعمل في شركة استيراد وتصدير حتى تستقر الأمور.

- ماذا تقول يا "معتصم"؟ أبعدما كنت صاحب شركة تصبح موظفًا في شركة؟!

- لا عيب ولا حرام، الفترة القادمة أحتاج راحة نفسية.

- كيف تشعر براحة نفسية و أنت ممكن أن تعمل عند أحد من الذين كنت تعلمهم؟!

- لن يكون أصعب من الأسبوع الذي مر عليَّ ولم أحظ بشكر، ولا أحد وقف جانبي من أهلي في محنتي.

- ربنا ييسر لك الأمور.

- أنا أخذت أجازة أسبوع، وأعلمت أخي والموظفين و اتصلت بالبنك، والأموال ستتحول لحساب الشركة المتضررة.

- لماذا أخذت الأجازة؟ لا بد أن ترجع حتى لا يقلق الموظفون؟

- لا، أنا منتظر أموالًا ستأتي؛ متأخرات على بعض العملاء عند أكثر من شركة اتصلت بهم، و اتفقنا أن بعد عشرة أيام ستدخل نسبة كبيرة من هذه الأموال في حساب الشركة، و أيضًا تحدثت مع الموظفين

و أقنعتهم أن المرتبات ستتأخر، و أنا سآخذ نسبة قليلة كمكافأة نهاية الخدمة، و أترك كل شيء لأخي.

- الحمد لله، لعله خير.

- كنت متخيل أنك سترفضين أن أترك...

- لا تكمل، لن أكون عليك أنا وأخوك.

- و أنا قررت أن هذا الأسبوع سأكمل باقي قصتك دون انقطاع!

ضحكت "إسراء"؛ يؤلمها الحيرة والاندهاش:

- أنت في ماذا ولا ماذا يا "معتصم"؟!

- أتعرفين؟ في وَسَط الحزن أتى إلى بالي أجزاءً من حكايتك، بعدها قلت كيف أضيق الدنيا على نفسي؟

- الحمد لله.

- احكي بهدوء، كيف كنتِ تقضين وقت فراغك وَسَط كل الظروف الصعبة التي مررت بها؟

ابتسمت "إسراء" وكأنها تذكرت شيئًا جميلًا.

- في أشياء كثيرة!

- احكي جزء منها؛ فمن الممكن أن أستفيد منها في ظروفي.

- أكيد، كنت معظم الوقت أنا وأهلي ومعظم المتضررين ر افعين أيدينا لله صبحًا وليلًا، و أيضًا نصلي ونقرأ القرآن وندعو ربنا أن يجبر بخاطرنا، و أيضًا كان لي بعض التقاليد المختلفة.

- ما هي؟

- كان عندي بعض الكتب، كنت لا أتركهم بجانب القرآن.

- مثل ماذا؟

- لن تصدق... "أسباب السعادة والنجاح".

ضحك "معتصم" بصوتٍ عالٍ:

- سعادة ونجاح و أنتم تتهجرون! سعادة ونجاح و أنتم تاركين دياركم وأولادكم وحالكم، فعلًا أحسنتِ

الاختيار!

ضحكت "إسراء" هي الأخرى:

- حتى الآن لا أعرف سبب الحفاظ على هذه المجلدات في سفري، لكن كنت كلّما أقرأ فيها ممكن أن أظل ساعة وساعتين دون ملل، لا أعرف لأن الكلمات جذابة وسهلة، أو كذب أو حقيقة، لكن مستحيل تتحقق، لا أعرف حتى الآن السبب، لكن كنت أقرأها وأدخل في الشرود مع نفسي بالساعة وأكثر، وكأني أعيش داخل الكلام الذي كنت أقرأه، وكنت أُصدم عندما أستفق من شرودي على صوت قذائف أو أي مصيبة.

عاد "معتصم" مرة أخرى ليضحك وقال:

- أتتذكرين أي شيء من هذه المجلدات؟

- أكيد، هناك بعض الأقوال لا تبرح رأسي.

- ما هذا؟ وتخبئينها عني؟!

الضحك لا يفارق الاجتماع الزوجي، بالرغْم من قسوة الظروف، لكن الانسـجام والتفاهم العقلي كان أكبر من الظروف القاسية.

- سأخبرك بعضًا مما أذكره:

"حتى تكون أسـعد الناس... الإيمان يُذهب الهموم ويزيل الغمام، وهو قرة عين الموحدين وسـلوى العابدين، ما مضى فات وما ذهب مات فلا تفكِّر فيما مضى فقد ذهب و انقضى."

- يا الله على الكلام الجميل! وماذا أيضًا؟

"إسـراء" في حالة تأمُّل وتذكر كلمات المسـاندة وقت الشدائد:

- "لا تنتظر شكرًا من أحد، ويكفي ثواب الصمد، وما عليك ممن جحد وحقد وحسـد، إذا أصـبحت فلا تنتظر المسـاء، وعش في حدود اليوم، واجمع همك لإصلاح يومك."

"معتصـــم" ينعم بتـأمـل الكلمـات، ويبـدو أنـه قريبًـا سيذهب لعالمٍ آخر يهيم فيه بجمال كلمات زوجته:

- ماذا عندك أيضًا من الحكم الر اقية الجميلة؟

- عندي الكثير.

- وتبخلين علي بها؟ أخبريني بالمزيد؛ فأنا الآن لدي أمل كبير، وعندي حلم جديد ســـأحققه بوقوفك جانبي وبكلماتك الداعمة بإذن الله.

- سيكون الله معك في كل خير.

- أنا بحاجة لجرعة زائدة من تلك الحِكم الر اقية.

- أنت كثير الطمع يا "معتصـم"، لكن لن أبخل عليك، أنت زوجي وسأكسب فيك ثو ابًا!

ضحك "معتصم" ضحكة تميزت بالصوت العالِ.

- هذا من كرمك.

- هناك أيضًـا جملة تقول: "اعتزل الناس إلا من خير، وكن جليس بيتـك، و أقبـل على شـــأنـك، وقلـل من

المخالطة، الكتاب أحسن الأصحاب، فسامر الكتب وصاحب العلم ور افق المعرفة".

تأمل "معتصم" في جمال الكلمات وقال: كلمات تستحق التطبيق والاقتناع بها.

- حلاوة الكلمات تشعر الشخص بالطاقة والإيجابية وتجعله يفكر جيدًا، لكن لا يستمر في هذا الطريق؛ فعند أول مشكلة ينسى كل تلك الكلمات!

ضحك "معتصم" مجددًا:

- أعوضًا عن أن تُحفزيني وتَحُضيني على السير في هذا الطريق، تحبطيني يا "إسراء"؟!

ضحكت "إسراء" من مداعبة "معتصم" وهو يرمي عليها اللوم:

- أنا أتمنى لك كل الخير وكل السعادة حبيبي.

- أكملي حَكاية قصتك، نحن كنا قد توقفنا عندما كان زوج أختك معتقلًا.

سرحت "إسراء" قليلًا لتستجمع بقية القصة.

- كان مقطوعة أخباره، كنا نعرف أنه بسجن (حلب)، وبعدها انقطعت أخباره خصوصًا بعدما ضُرب سجن حلب، كانت أخباره مقطوعة منذ كنا في (الشـــام)، عندما وصلت أختي إلى (الحسكة) سألناها: "ما أخبار زوجك؟"

قالت: "والله لا أعرف، لكن هناك أناس يقولون أنه خرج من الســجن، و أنـاس يقولون أنـه هرب إلى (تركيا)، و أناس يقولون أنه أصــبح مع الجيش الحر، و أنا لا أعرف كيف أتصــرف؟ ولا أجد من يســتطيع الذهاب إلى (حلب) و أبو زوجي واخوته لا يســتطيعون الذهاب حتى لا يتم القبض عليهم هم أيضًا."

ظلت أختي معنا حوالي 15 يومًا، وذات يوم بينما نحن جالســون رن هاتف أختي، كان رَقَمًا غريبًا وســمعت أختي صوت شخص يقول لها: "هل تعرفين أنس

البهلول؟"

قالت له: "أجل، هو زوجي، من أنت؟"

قال: "أنا من طرفه، طلب مني أن أخبركم أنه بخير، وهو في السجن وإذا احتجتم شيئًا هاتفوني على هذا الرَّقَم." وعلى الفور أنهى المكالمة. أخبرت أهلي بما قاله الرجل فأخذ أخي الرَّقَم و اتصل به، قال له: "من أنت؟ وكيف تعرف أنس البهلول؟"

قال: "أعرفه لأنني أنا شرطي بالسجن، وهو مسجون منذ ستة أشهر ولم يسأل عنه أحد، وهو يود أن يطمئن على زوجته وأولاده، إذا لم يكن عندكم مانع فتعالوا إليه."

و أنهى المكالمة مرة أخرى، لكن أختي لم تصدق حديثه وقالت أنه يكذب وعاودت الاتصال به وقالت له: "هل أنت متأكد أن أنس ما زال على قيد الحياة و أنه في السجن؟"

قال لها: "هل تظنين أنني أمزح معك؟!"

قالت له: "إذا كنت صادقًا فأنا أريد إشارة منه؛ لأنني لم أعد قادرة على تصديق أي إنسان، فكل يوم يقول لي أحدهم شيئًا مختلفًا."

قال لها: "حسنًا أختي، سأغلق الآن وبعد عشر دقائق عاودي الاتصال."

و اتصلنا فقال لها اسم ابنها الصغيروأوصافه أيضًا، قالت له: "نعم، هو كذلك." ثم قالت لنا أختي: "أنا سأذهب إلى حلب." قال لها أبي: "لن تذهبي وحدك، خذي أخاكِ معكِ." قالت له: "لا، أخاف على أخي."

قال لها: "الأعمار بيد الله."

وسافرت هي وأخي فارس، وتركت أولادها عندنا، وعانى الاثنان كثيرًا حتى وصلا إلى هناك، وكانا تحت القصف في كل مكان يسيران إليه حتى استطاعا الوصول إلى السجن، الحمد لله قابلاه وكان بخير

وطلب منهما أن يوكلا محاميًا ليخرجه من السجن. عادت أختي بعدما ارتاحت وعرفت أن زوجها على قيد الحياة وهو بخير، ووكلت محاميًا وكان يأخذ منها أموالًا كثيرة. وأختي الكبيرة أميرة كانت بالدير مع أهل زوجها، ونزحوا من مكان لمكان بالدير، ولا نعرف أخبارها إلا بالصدفة عندما تعود شبكة الاتصالات وقتها نستطيع أن نتصل بها لنطمئن عليها، أصبح الوضع صعبًا جدًا (بالجورة)، وبعد مدة نزحت هي وأهل زوجها إلى (الرقة)، استأجروا بيت وسكنوا فيه. أما أختي أمل، فقد أتى أبو زوجها وأخذها معه إلى (الحويجة)، ولم يقبل أن يتركها عندنا، قال: "أنتم الله أعلم كيف تدبرون أموركم بالمياه والكهرباء؟"

أصبحت حياتنا مُرة في (الحسكة)، وكل يوم كنا نفكر إلى أين يجب أن نذهب؟ وذات يوم قال لنا أخي حمزة: "أود أن أذهب إلى تركيا؛ فالوضع الآن مستقر،

سـأذهب إلى هناك تهريب و أبحث عن بيت وعمل وبعدها سأرسل لكم لتلحقوا بي، لقد سبقني صديق إلى هناك ويريدني أن ألحق به." قالت له أمي: "مستحيل أن تذهب وحدك." وظنا أمي و أبي أنه سيذهب إلى تركيا بالفعل وخاصة أن أمي تعرف أن لها أقارب بتركيا، لكنها لا تعرف عناوين بيوتهم، وسألنا لكن لا أحد يعرف التفاصيل، لكن كل ما عرفناه أن بيتهم (بماردين) بجوار جامع اسمه "الشهيد"، بيت الجِدّ والكل يعرف بعض.

"معتصم" دخل في دوامة من التفكير في أعماق العقل؛ لأن اسم الجامع ليس بالغريب عنه.

- بالفعل أسمع عن "جامع الشهيد".

- أجل، أخذنا حوالي شهر نفكر أن نذهب إلى تركيا ولا نظل (بالحسكة)، لكن كان كل يوم الوضع يصبح أسوأ، في هذا الوقت وصلت امرأة أخي وقالت: "جدي

وجدتي يريدان أن يذهوا إلى تركيا ليقيما عند أبي."
لأن أبا زوجة أخي كان في تركيا (بأورفا)، وهنا قرروا أن يذهبوا إليه، فأقنعنا أخي طاهر أن يذهب مع أولاده، وكان عنده جوازات سفر هو والأولاد، وقلنا له: "حاول أن تذهب وتضبط الوضع وتبعث لنا."
سافر أخي، ووصل الحمد لله، كانوا يدخلون من البوابات على الحدود بجوزات السفر دون أي مشكلات، وسافر أخي وظل هناك حوالي عشرين يومًا، بعدها عاد إلينا وقال: "الوضع هناك صعب وكل شيء غالي، لن نقدر على المعيشة هناك." كان أخي قد أتى يريد أن يأخذ معه بضاعة، قال أنه يريد أن يبيعها هناك وإذا نجح هذا المشروع وقتها يستطيع أن يأخذنا معه، وسافر مجددًا، بعدها بأسبوع قالت أمي: "أنا سأسافر مع أبيكم، أود أن أرى بيت جدي و أتفقد الوضع (بماردين)، ربما يكون بيت جدي بحال جيدة

ويساعدونا، وإذا وجدت أن الوضع بخير سأبعث لكم." بالطبع كان كل هذا من أجل ألا يذهب أخي حمزة وحده إلى تركيا، وقتها كنا قد أمضينا (بالحسكة) حوالي ستة أشهر، وسافر أهلي و انقطعت أخبارهم لأن انقطعت عندنا الاتصالات (بالحسكة) حوالي أسبوع.

"معتصم" ما زالت القصة تثير اندهاشه بتفاصيلها العصيبة.

- يا الله على الظروف!

- ونحن ننتظر أنا وحمزة وفارس أي خبر منهم، وصل شاب من أقارب امرأة أخي، كان آتيًا من (تركيا) وقال: "يقول أهلكم أن تذهبوا إليهم في (أورفا)، إذا كان لديكم رغبة في السفر فأنا سأسافر صباح يوم الأربعاء." كان قد أخبرنا بذلك ليلة الإثنين، ورغب أخي أن نذهب معه ولكن قلت له: كيف نذهب؟ فلا بد

من تفريغ البيت وأجلب أغراضًا من السوق؟

قال: "غدًا نقوم بعمل كل شيء." قلت له: أنا لن أستطيع أن أخرج بالسيارة وحدي فلا أعرف الطرق، افترض أن يخرج علينا في الطريق قطاع طرق. المهم، في صباح اليوم التالي ذهبت مع أخي إلى السوق واشترينا أغراضًا كثيرة من مأكل ومشرب، ورجعت إلى البيت جهزت غداءً لأخوتي ولم أستطع أن أتناول الطعام؛ لأنه ليس لدي وقت، لا بد أن أجهز الحقائب والبيت وأرتب كل شيء، وفوق كل هذه الأعباء انقطعت الكهرباء وأخذت في ترتيب كل شيء في الظلام الدامس ولم أنتهِ حتى أقبل الصباح، في الصباح وضعت الأغراض في السيارة وكان معها تلفاز وبطانيات أيضًا.

ضحك "معتصم" ضحكةً مزجتها العاطفة والشفقة والإعجاب.

- التلفاز أيضًا!

لم تعره "إسراء" انتباهها وتابعت:

- وبعض أغراض المطبخ، وإسفنجات للنوم، كل هذا رتبته بطريقة نستطيع أن نضعها بها في السيارة، أخذنا نحو ساعتين أو ثلاث ساعات ونحن نرتب الأغراض، وضعنا في السيارة من الخلف وعلى المقاعد الخلفية ولم يبقَ مكان للجلوس فيه إلا بجانب السائق في كابينة السيارة من كثرة الأغراض، كنت قد جهزت حقيبة صغيرة بها بعض الأطعمة؛ لأنني قد قضيت يومًا كاملًا بدون طعام، أخوتي أكلوا لكن أنا كنت منشغلة ولم أتناول أي طعام، وقررت أن نأكل في الطريق. المهم، من كثرة الأغراض ولم يتبقَ مكان لنجلس فيه فقال أخي: "اتركي حقيبة الطعام، ونحن في الطريق بالاستراحة نشتري ما نريد من طعام."

وقبل الحدود سمعنا أصوات ضرب وقصف وأشياءً

مخيفة، رأيت السائق الذي أمامنا توقف!

قال السائق: "إن أهل القرية يقولون أن الضرب يكثر على الحدود؛ الجيش الحر مختلفون مع بعضهم ومشتبكون، لا بد من الانتظار."

الوضع الذي تحكيه "إسراء" عاش فيه "معتصم" بخياله، وبدا على وجهه التأثروالخوف من الضرب والاشتباكات.

واستكملت "إسراء":

- كان المكان اسمه (تل أبيض)، توقفت السيارة على جانب الطريق و انتظرنا ريثما تنتهي الاشتباكات، كنا منتظرين أمام بيوت فقام أحد أصحاب البيوت بدعوتنا لبيته وقال: "تفضلوا حتى تنتهي الاشتباكات ويهدأ الوضع وتكملوا طريقكم." قلنا له: "جزاك الله خيرًا، لكن نريد استخدام الحمام فقط، أدخلنا البيت لنستخدم الحمام، بالطبع كان عددنا كبيرًا

ورفضوا أهل البيت أن ننتظر في الخارج، قالوا: "لا بد أن تدخلوا وتستريحوا." بينما نحن جلوس كنا نحكي عن الوضع فقالت صاحبة البيت: "لقد وصل خبر لزوجة ابني أن أهلها ماتوا بالقصف (بالرقة) منذ ساعات قليلة، مات سبعة من العائلة." قاموا بضيافتنا بالشاي وكانوا مُصرين أن نتناول الغداء، لكننا اعتذرنا؛ لأن إذا وصل الوقت للساعة الرابعة ستغلق البوابات ولا نستطيع أن نمر، كان الوقت حوالي الساعة 12 ظهرًا وبقينا جالسين معهم حتى الساعة الواحدة، فأتى أخي وقال: "هيا تجهزوا؛ لأن الضرب قد توقف ولا بد أن نستكمل طريقنا." وأهل البيت الذين كنا عندهم كانوا في غاية الطيبة والكرم وقالوا: "إذا لم تقدروا أن تعبروا فلتعودوا إلى هنا." والحمد لله وصلنا الحدود، والجيش الحر أوقفنا وكان هناك سيارات كثيرة وبشر أكثر وأكثر، وطالبوا الكل

بأن يخرجون الهويَّات، انتبه واحد منهم إلى أخي حمزة وقال له: "هل أنت من الأمن العسكري التابع (للرقة)؟"

رددت أنا بعصبية شديدة وقلت له: ومن تكون أنت حتى تحكم عليه أنه من الأمن العسكري؟ نحن من (الدير) وهويته و أيضًا بطاقته الجامعية يقولان ذلك، وفوق كل هذا تركنا بيوتنا ومالنا و أنت تقول....

نظرلي أخي وقال: "اصمتي أنتِ، أنا أتكلم."

نظر"معتصم" بابتسامة فخرلزوجته.

- و أتت مجموعة من الجيش الحر يعتذرون عما حدث.

"معتصم" قد أعجبه ما صدرمن زوجته في محاولة لمواجهة الظلم، فنظرإليها و ابتسم مجددًا.

- أيعني ذلك أن المشاجرة أتت بالفائدة؟

- أكيد، ونحن و اقفون قسمنا أنفسنا مجموعات،

كانوا يفحصــون جوزات الســفر ثم يأخذون الأموال وبعدها نعبر، تركنا الأولاد وحمزة يعبرون أولًا لأنه قد أتى دورهم، بعدها طاهر قال لفارس: "اذهب أنت أيضًــا وخذ دورك حتى لا يقولون لم يأت دورك." وبالفعل عبر فارس وبقينا نحن ننتظر كثيرًا، كنت ظمأى جدًا وحقيبة ملابسي ضاعت، يبدو أنها قد سقطت من السيارة ولم أنتبه -ما اكتمل شيء إلا وكان به نقصان- وأخذت أبكي و أقول لطاهر: لم أعد قادرة على التحمل؛ أريد أن أتناول أي شيء، ولا يوجد مكان حولنا نشتري منه أي طعام. وطاهر يقول: "اصبري، باقي خمس سيارات فقط على دورنا." لأنه كان قد عبر أخوتي وأولادهم وبقي أنا وطاهر مع السيارة، وكانت الساعة تقريبًا العاشرة ليلًا، وخرج فرد أمن الحدود وقال: "يكفى ذلك اليوم، نكمل غدًا!"

"معتصم" وقد اندمج، ولكن "إسراء" تصر أن تختلف ملامح وجهه بالصدمات التي واجهتها والأحداث التي لم تكن بالحسبان.

صُدم "معتصم" من نهاية اليوم العجيبة وقال: يا للصدمة! ما هذا الحظ؟

- كانت صدمة كبيرة بالفعل بعد يوم شاق لم ينته، توجه طاهر إلى فارس وأخبره من عند الباب أننا لن نستطيع العبور اليوم، وطلب منه أن يجد سيارة ويأخذ الحقائب والأولاد وحمزة وعنوان البيت ويذهبوا، ونحن سنبيت هنا ونلحق بهم غدًا صباحًا إن شاء الله، لكن رفض فارس وحمزة وقالا: "سنظل هنا حتى تعبرا غدًا إن شاء الله." و أنا أخذت في البكاء من كل شيء؛ التعب والجوع، وقهرة القلب، وقال طاهر: "أعرف أن (تركيا) ليست أفضل خيار، ولكن أنتم لا تصدقون." وغاب عني ساعة وعاد، قال:

"يمكننا أن نعبر الآن، ولكن نحتاج مبلغًا على السيارة 15 ألف سوري." قلت له: يا ويلي! لن ندفع، لننتظر للغد. قال: "أنتِ تعبتِ كثيرًا، ولستِ قادرة على التحمل أكثر من ذلك." وبالفعل دفع لهم وعبرنا، تزاحمنا في السيارة وتوجهنا نحو بيت أقارب أمي، كان أبي قد استأجر بدروم به غرفة ومستلزماتها. دخلت سلمت على أهلي وبعدها أخذت أبكي وجسمي يرتجف من الرعشة، و أتت أمي وقالت: "ما بك؟ الحمد لله أنكم بخير، لا تقلقي، في القريب العاجل سيعمل أخوتك ونستأجر بيتًا جديدًا واسعًا." لكني من كثرة البكاء والقهر والحزن الذي على وجهي وفي قلبي لم أعد أدرك شيء، ونمت من كثرة التعب وما شعرت بشيء إلا في اليوم التالي.

- ما نوبة البكاء التي حلت عليكِ هذه؟ لكن معكِ حق؛ الظروف التي تحكين عنها صعبة، وتجعل الحسرة

تدخل في القلب من شدتها.

أكملت "إســراء" وتكاد الدموع تنزف من عينيها من إثر تذكر الماضي الأليم.

وأمي تقول لي: "يكفي هذا، أخوتك من كثرة ما تفعلينه أصــبحوا يريدون أن يرجعون إلى (ســوريا)، ونحن ما كدنا نصــدق أن هربنا من الحرب." وحكت لي أول مرة دخلت فيها هذا البيت، تقول: "أنا و أبوكِ كان معنا حقيبـة ثيـاب فقط، والجيران كـانوا يـأتون ينظرون لحالنا ثم يذهبون، شـعرت بالقهروالذل وأخذت أبكي من الوضــع، الجيران لم يقصــروا، جلبوا لنا ســجادة وبطانية وبعض الأغراض، والحمد لله أنتم وصــلتم ومعكم أغراض أيضًــا، و أنا و أنتِ ســنضــبط الغرفة ونبقى هنا إلى حين." قلت لها: كنتِ تودين الذهاب إلى (ماردين)، لماذا أتيتِ إلى (أورفا)؟ قـالـت: "لا أعرف كيف نذهب؟ نحن ببلد غريب، نســأل ونعرف كيف

نـذهـب وكم يكلفنـا الـذهـاب؟ اصــبري حتى يعمـل أخـوتك ويـدبرهـا الله." قلـت لهـا والـدمعـة في عيني: إن شاء الله.

أخي طاهر استأجر بيتًا هو ووالد زوجته بجوارنا، لكنه كل يوم كان يقول: "أنا ســأعود لســوريا؛ لا أســتطيع العيـش هنـا، ســتنفـد الأموال، والأولاد يحتـاجـون طعامًا ومصـاريف، لسـت بقادر على المعيشـة هنا، إذا أراد ابني كيس بطاطس لا أقدر أن أحضــره لـه." كان الحق معه؛ الأموال تكفينا قيمة خبز وبعض الخُضَــر الضــروري فقط، كـان رغيف الخبز نشــتريه بقيمـة خمسين ليرة سـورية، وكان يلزمنا كل يوم تقريبًا للخبز فقط 500 ليرة، ونحن بسـوريا كنا بــ500 ليرة نشـتري بهم قيمة طبخة مع لحمتها وخضارها.

"معتصــم" لم يســتغرب من كلامها لأنه يعلم تمام العلم أن الحياة التركية غالية في مصاريفها عن

سوريا.

- بالفعل المصـــاريف هنا بالنســـبة لبلدكم فارق كبير جدًا.

- كنا نشـــتري الخبز بالعدد، ولكل واحد منا رغيف لا يأكل غيره حتى لو لم يشبع، وكان الوضع صعب جدًا بالنسبة لمصاريف الطعام؛ لأنها مصاريف ثابتة كل يوم، قلت: لا بد أن نجد حلًا. وبالفعل كان هناك جارة متهجرة من سوريا لكن هي جاءت قبلنا، وأكيد تعرف كيف نتصرف، ذهبنا إليها وسألناها فقالت الجارة: "أنتم اشـــتروا طحين واعملوا العجين، وابعثوا به لبيت تركي يخبزوه لكم." وبالفعل عملنا مرة والثانية وفى المرة الثالثة الجارة التركية رفضت تخبز العجين، وأمي غضبت كثيرًا وصعب عليها حالها، وأخذت تبكي، لكن الجارة السورية قالت: "لا تقلقوا، أنا سأخبزه." وبالفعل أمي ذهبت إليها وتعلمت كيف يخبزون، كان

ينقصنا الصاج الذي كانوا يخبزون عليه، جلب أبي صاجًا، لكن كان صغيرًا، وأمي كانت تعلمت من جارتنا السورية وأصبحت تخبز عندنا في البيت، والحمد لله وجدنا حلًا للخبز مع أنه مرة يضبط ومرة أخرى لا يضبط، لكننا انتهينا من مشكلة الخبز.

- حقًا إن الحرب تدمر أشياءً كثيرة، لكنها كانت سببًا أحمد الله عليه أني قابلتك!

نظرت "إسراء" نَّظْرَة دهشة، وحاولت تجنب غزل "معتصم" باستكمالها القصة.

- الوضع كان في غاية الصدمة والعجب؛ أخي حمزة صاريعمل في مغسلة لسيارات النقل الكبيرة، ويخرج منذ الصباح ويعود في العاشرة ليلًا وكله أسود من الشحم والزيت، وجسمه يرتجف من البرد.

- ماذا تقولين؟ حمزة كان يعمل في مغسلة سيارات؟ حمزة المهندس النزيه!!

- ولو كانوا قالوا أن هذا حمزة الذي كان (بسوريا) ما كنت أقول غير أنكم مجانين؛ حمزة الذي تقريبًا لم يساعد أبي في المصنع طوال حياته إلا مرات تُعد على الأصابع، حمزة المدلل دائمًا في اللبس والمظهر! وكان أخي فارس يعمل يومًا ويظل بلا عمل يومًا آخر، كان يعمل في الإنشاءات والتشطيبات وتزيين المنازل. وطاهر لم يتقبل الوضع فأخذ زوجته وأولاده وعادوا إلى (سوريا) مرة أخرى، رجع إلى (الحسكة).

- يا الله! لكنه بالفعل أكيد معه الحق، أنتم كبار بالسن يمكنكم أن تتحملون الجوع يومًا أو يومين حتى تنضبط أحوالكم أما الأولاد الصغار لا يقدرون.

- وبقينا على هذا الوضع مدّة كبيرة، و أنا نفسيتي صارت سيئة، لا صديقة ولا أخت ولا أي إنسان قريب، كان لدينا جيران أتراك لكن لا أعرف كيف أتكلم معهم؟ وكان هناك أيضًا أناس سوريين حولنا،

عائلتان فقط، لكن أنا لم أتقبل الوضع، كنت أبقى في البيت، و أبي يذهب إلى الجامع بكل وقت صلاة ويعود، وأمي معي بالبيت تخرج قليلًا عند جارتنا السورية، و أنا أحبس نفسي في البيت، لا أقبل أن أذهب لأي مكان، والذي كان يقهرنا أكثر أنه كان عندنا خط واحد تركي بالبيت نضع فيه رصيد ونهاتف أخوتي مرة واحدة في الشهر لنطمئن عليهم، كلمتين فقط وينفذ الرصيد.

- مؤكد أن أول اختلاط مع مجتمع مختلف صعب جدًا.

تحرك "إسراء" رأسها بالموافقة على تعقيب "معتصم" وتكمل:

- ومرة جارتنا السورية أتت تقول لأمي: "هناك أناس تقوم بعمل مسابيح بالبيت." قلت لأمي: حسنًا، أحضري لي. وذهبت أحضرت لي، فها أنا حبيسة بين

أربعة جدران وأعمل مسابيح مثل المساجين، وأخوتي يقولون لي: "تعالي نأخذك ونخرج في يوم العطلة، هناك أماكن جميلة في (أورفا)؛ مقام سيدنا إبراهيم ومقام أيوب، كلها جوامع كبيرة وحولها مناظر رائعة." و أنا أقول لهم: لا أريد، ليس لدي رغبة. لكن كنت أذوب مثل الشمعة، جسدي يضعف ووجهي متعب، مظهري يثير الحزن، ودائمًا أقول لأمي و أبي: لقد أحضرتمانا هنا للأمان وتركتما ابنتيكما وأولادهما و ابنكم وأولاده في سوريا، أيعقل ذلك؟ دعونا نعود لسوريا. فيقولون لي: "لماذا؟ نحن أيضًا تحترق قلوبنا عليهم." حوالي أربع أشهرونصف والوضع من الصعب للأصعب، فقررت أمي و أبي أن يذهبا إلى (ماردين) ويستكشفان الوضع هناك ربما يكون أحسن للمعيشة، فهناك الناس تتحدث العربية قليلًا، وستجد أمي خالاتها. وبالطبع سافرت أمي و أبي،

ونحن كنا نسأل كيف يذهبان؟ وكم ساعة يستغرقها الطريق؟ وكم تبعد (ماردين) عن (أورفا)؟ حوالي ساعتين ونصف، بالطبع أمي و أبي كانا ذاهبين لشيء مجهول، لا يوجد عنوان ولا تعرف أي شيء غير شيء واحد فقط؛ أن بيت جدها عند جامع الشهيد، المهم ذهبت أمي و أبي، وصلا الحمد لله رب العالمين، سألت عن العائلة بجوار الجامع والناس عرفتهم بسرعة، وأمي قدرت أن تجتمع ببيت خالها، ومن بيت خالها توجهت لبيت خالتها وتعرفت عليه، لكن (ماردين) القديمة مدينة صعب العيش فيها؛ لأنها تقع على جبل والبيوت كلها على الجبل.

- بالطبع أعرفها، هل ستصفينها أنتِ لي؟ أنا تركي قديم، أنتِ تركية جديدة!

لكن دعابة "معتصم" لم تخرج "إسراء" من انسجامها في حزن قصتها.

- وأمي لا تقدرعلى العيش هناك؛ بيت خالة أمي أناس بسطاء يعيشون على الكفاف، ومُذ دخلت أمي بيتهم شرحت لهم وضعنا وقالت لهم: "أنا لا أريد منكم لا أموال ولا أي مساعدة، أنا فقط أريد أن نعيش بجوار أشخاص نعرفهم ويتحدثون العربية، وإذا استطعتم أن تدبروا عملًا لأولادي، كنت أود أن أعيش هنا في (ماردين)، لكن من الصعب أن أستقرهنا؛ لا أستطيع الصعود والهبوط من وإلى الجبل." وسألتها عن باقي عائلتها قالت لها: "لك خالة تعيش بمنطقة اسمها (ويران شهر)، خالتك توفيت لكن أولادها هناك."

بالطبع المنطقة بين (أورفا) و(ماردين) بالوسط.

- بالفعل الوصف مضبوط.

- وذهبت أمي، كانت منطقة عادية جدًا بالنسبة لطبيعة (تركيا) وجمال تركيا، يعني أنها كانت منطقة معدومة منذ ما يقرب من 15 سنة تقريبًا، عندما

استلم الحكم أردوغان حدث فيها شغل كثيروصارت أفضل قدرالإمكان، لكن تشعرأن شعبها يعيش كأهل القرى من حيث اللباس والكلام والمنطق، شعب غير متحضر، ويعيش فيها عدد كبيرمن الأكراد.

ضحك "معتصم" وظهرعليه علامات الفخر والاندهاش والتعجب.

- ما هذا؟ عرفتِ أيضًا تاريخ وحاضرالمنطقة، و أيضًا عادات وتقاليد أهلها!

- أمي ذهبت وزارت بيت خالتها، وأولادها كانوا أناس طيبين، واستقبلوا أمي وأحبوها، وأمي سألتهم: "إذا أردت أن أعيش في هذا البلد، كيف أقدرأن أعيش؟" قالوا لها: "البلد هنا رخيصة؛ بالنسبة للإيجارات، البيوت، والكهرباء والمياه." رجع أهلي وأخبرانا بالوضع، وقالا: "إذا أردتم فلنذهب إلى هناك؛ فالوضع هناك أفضل؛ أناس نعرفهم ويتحدثون

العربية، وإذا احتجنا إلى مستشفى أو أي شيء سيذهبون معنا، كما أن إيجار البيوت رخيص." لم يكن لدينا مانع وقررنا الذهاب، اتصلنا بخالة أمي وطلبنا منها أن يستأجروا لنا بيتًا ثم يخبرونا بعدها حتى نرتحل إلى هناك، استأجروا البيت وبعثوا إلينا في أول يوم رمضان، وجارتنا التركية عزمتنا على الإفطار، وفطرنا عندها وبعدها وضعنا أغراضنا في سيارة صغيرة أجرة ونحن ركبنا سيارتنا وذهبنا، وكان ينتظرنا عند أول الطريق ابن خالة أمي ليأخذنا إلى البيت، وصلنا حوالي الساعة التاسعة والنصف، تبعد (ويران شهر) عن (أورفا) حوالي ساعة وربع، وكان كم شخص من أقارب أمي بانتظارنا، وساعدونا بتنزيل الأغراض ثم عادوا لبيوتهم، ونحن نمنا من فورنا.

كان هناك في العائلة فتاة قريبة من عمري وهي وحيدة

على أربعة شـــباب، أحبتنا كثيرًا وأخذت تحاول أن تكون صـــديقتي، وأحبوا حمزة وفارس كثيرًا، وكان عندهم إنترنت بالبيت فكان أخي حمزة يذهب إليهم ليفتح الفيسبوك ويراسل أصدقائه ويتسلى قليلًا.

- هذا جيد، هذا يعني أنهم خففوا عنكم العزلة التي كنتم تعيشون فيها.

- بالطبع، كثيرًا، لكنني لم أستطع التأقلم على الوضع؛ فالجو كان حارًا جدًا، و أنا قاطنة بالبيت من الصباح للمغرب، كنت أموت من الحر، وعاد وزني للنزول من جديد، كنت أموت من الحر في فترة الصـــيام، كنت أفتح المياه وأظل أســـكب على رأســـي مياهًا لكن دون جدوى، و أنا من عنادي ما كنت أقبل أن أزور أحد، كنت أشعر أن هذا يخفض من قيمتي، لا أعرف كيف كنت أفكر وقتها، حتى أنني من شـــدة الحر الذي تعرضت له حدث لي نزيفًة وكنت لا أنفك أطلب من

أمي أن نعود لسوريا.

استغرب "معتصم":

- سوريا مجددًا؟! أمرك غريب جدًا!

- و أقنعت أمي، حتى الشباب أخذوا يقولون لأمي: "خذيها إلى سوريا في العيد؛ لأن ابنتك ستموت، وإذا حدث لها أي مشاكل صحية هنا لا نعرف إلى أين نذهب لنعالجها، خذيها لترى الوضع في سوريا وترى أخوتها وأولادهم، حتى إذا أتاها الموت فلتمت هناك."

- ألهذه الدرجة صحتك كانت تتدهور؟!

- وبالفعل سافرنا لسوريا، ونحن في الطريق سرنا حيث الجسر المعلق فوجدناه مهدومًا، بكيت أنا وأمي على المنظر وأكملنا طريقنا، بالطريق وجدت أننا نمر بجانب (دوار الحلبية) مما يعني أننا قد اقتربنا من قرية (حطلة)، قلت لأمي: فلننزل هنا ونكمل إلى (حطلة) عند أختي "أمل". لأنه كان يلزمنا ثلاث

ساعات تقريبًا حتى نصل (البوكمال)، نزلنا وسألنا كيف نصل (لحطلة)؟ وقفت لنا سيارة وقلت لها: نريد أن نذهب لحطلة. قال: "عند من؟" قلت له: بيت حاج حميد البهلول. قال: "سأوصلكما حتى باب بيتهم." وصلنا عند أختي وعندما رأتنا ور أيناها تحدثت الأشواق عن طريق الأحضان والبكاء ثم جلسنا نتحدث سويًا فقالت أختي: "كيف وصلتما؟" أخبرتها أمي ما حدث منذ تركنا تركيا حتى وصلنا سوريا وحكت لها وضعنا وكيف أني مكتئبة ولم أعد أتقبل العيش في تركيا. قال أختي: "نحن في سوريا ولسنا مرتاحين، لا يوجد لا مياه ولا كهرباء، وكل يوم والثاني نفقد الخبز، وأصوات الضرب والقصف لا تنتهي، لا تعتقدي أن من يعيش هنا يعيش في راحة." - يا الله! لا أحد مستريح في مكانه؛ فالجو هنا سيئ للغاية مع عدم الاندماج في الوضع وهناك بدون الأمان وقلة

الخدمات!

استكملت "إسراء":

- ذهبت لبيت أخي في (القصور)، ولكي ندخل (القصور) لا بد أن نعبر من خلال النهر إلى الجانب الثاني، ولأن الجسور كلها مكسورة عبرنا بسفن صغيرة إلى الجانب الثاني، وصلنا (القصور) فوجدنا أن تقريبًا نصف أهل (الدير) قد نزحوا من بيوتهم إلى (القصور) وإلى (الجورة) لأن ليس فيهما قصف ولا ضرب، وكان الجيش والعساكر يمشون بين الناس، والناس متعايشة مع الوضع مجبورة، كان أخي يعمل هو ورفيقه في محل خردوات ودهان قد استأجراه، واستأجر بيتًا أقام فيه هو وزوجته وأولاده، وكان بيت عمي (بالقصور) أيضًا، ولي عمتين أيضًا بيتهم (بالقصور) وعمة مستأجرة بيت (بالجورة)، مما يعني أن تقريبًا كل الأقارب بجوارنا وصديقاتي أيضًا كن

مستأجرات في تلك المنطقة. قضيت أول أسبوع كلّما رآني أحد يقول لي: "مستحيل أنكِ كنتِ (بتركيا)، مؤكد أنكِ كنتِ في معتقل أو سجن." عندما رأيت الوضع (بالقصور) و(الجورة) كنت متوقعة أن أجد الوضع سيئًا والناس كلها حزينة ومرتدية السواد، كنت متوقعة ذلك ولكن الوضع كان غير ذلك؛ الجميع يخرج ويدخل بشكل طبيعي، ولديهم سوق أيضًا، وأصوات الأغاني بالشارع، والشوارع مزدحمة جدًا من كثرة الناس، الناس تتزوج وتقوم بعمل حفلات زفاف في البيوت، وناس تذهب كل يوم للسوق وتشتري مستلزماتها.

- أعتقد أن هذا جيد؛ فالحياة بدأت تعود.

- إنك تشعر كأنك بعالم آخر ولست (بالدير) التي فيها القصف والضرب، والناس استشهد منها الكثير وتشرد الكثير، وذات مرة ذهبت إلى المحافظة لأقدم

أور اقًا لوظيفة وسمعت صوت الأغاني الوطنية ور أيت الناس، رجعت الطريق كله أبكي و أقول: أمعقول أننا (بتركيا) تبهدلنا وتشردنا، والناس هنا تعيش بسعادة وكأن شيئًا لم يكن؟!

- هناك مثل يقول "الحي أبقى".

- ما كنت أستوعب أن الناس تعيش هكذا؛ تُظهر أنها تتقبل الوضع حتى لا يحدث لهم شيئًا! ور أيت أصدقاء أخي حمزة وهو قد ترك مهنته ويعمل عند الناس في تركيا لنستطيع أن نعيش! الوضع من حيث الكهرباء والمياه كان سيئًا، لكن الناس استطاعت أن تتأقلم مع الوضع، أما أنا لم أستطع أن أجد وظيفة وبقيت في المنزل ولكن عقلي كان مع أهلي في تركيا.

- يا الله على تقلب مزاجك! لقد كنتِ معهم، و أنتِ التي طلبتِ أن تعودين إلى (سوريا)!

- كنت أود أن يتركوا تركيا ويعودون لسوريا، كانت تمر

علينا أيام كثيرة (بالقصور) و(الجورة) لا يوجد رغيف خبز أو تنقطع الكهرباء لأيام؛ لأن الخبز يكون بالبيت بالطبع ولا يوجد غاز، وبدأت الناس تعود للوسائل القديمة كالحطب أو الجاز وهكذا تعايشوا مع الوضع، ورغم ذلك كنت أشعر أنه شيء عادي ولم أكن أتضايق، وكنت أقول: كل شيء يهون إلا العيش في تركيا. وكنت أهاتف أهلي كل يوم و أقول لهم: ارجعوا إلى هنا حتى يعود حمزة إلى عمله. وأخي حمزة اقتنع وقال: "نعم، أنا أود أن أعود، لكن أريد منكِ أن تذهبي وتسألي إن كان اسمي بين أسماء المطلوبين للجيش." وسألنا وعرفنا أن أخي موقفه سليم ويستطيع أن يعود، أخبرتهم بذلك فعادت أمي في شهر نوفمبر تقريبًا ومعها حمزة. كنا نخاف أن يوقفوه عند الحواجز ويمسكون به ولكنه مر بسلام بفضل الله وبدون أي مشاكل. ظل أخي "فارس" (بتركيا) لأن أهلي

قالوا: "سنعود نحن وإذا استقرينا في سوريا سنبعث لفارس ليأتي، وإذا لم نستقر سنعود لتركيا." مما يعني أنه ليس هناك قرارًا نهائيًا. عاد "حمزة" لعمله وخطبنا لفارس ابنة عمتي، لم تكن أمي مقتنعة بالوضع (بالقصور)؛ فكانت تقول: "لا حياة كريمة؛ لا كهرباء ولا مياه، وكل يوم والثاني هناك حصار، لا بد أن نعود لتركيا." قلت لها: أنا لن أعود. و"حمزة" قال: "أنا أريد أن أظل في عملي هنا."

اندهش "معتصم" من جديد بابتسامة خفيفة.

- كان هناك جامع على الجانب السوري من البوابة، تسللنا جميعًا وجلسنا بالجامع، وكان يوجد أناس قبلنا جالسين أيضًا بالجامع، انتظرنا حوالي ساعتين فقالوا لنا أننا لا ينبغي أن نبقى هنا وسيأخذونا للمدرسة، رأيت في الجامع أناس وضعهم سيئ جدًا وحالتهم تبعث الحزن في النفوس، سألتهم: ماذا

تفعلون هنا؟ قالوا: "نحن نازحين ونعيش هنا بالمخيمات، لكن لا يوجد بها مياه؛ لذلك نأتي إلى الجامع لنأخذ مياه." قلت لهم: ولماذا لم تتوجهوا إلى (تركيا)؟ قالوا: "ننتظر حتى ينتهوا من إعداد المخيمات (بتركيا)، وسنتوجه إليها." المهم، جلبوا لنا سيارات وأخذونا إلى المدرسة كما أخبرونا، ولكن وجدنا أن المدرسة تابعة للمخيم؛ يعني خيمة كبيرة، ليس فيها أي شيء، يأتي الطلاب في الصباح يجلسون على الأرض يتعلمون، بالطبع لم يكن في المخيم لا كهرباء ولا مياه، الناس تعيش على استخدام الشموع، شيء صعب جدًا ومحزن للغاية؛ لأن الجامع يبعد عن المخيم حوالي كيلومتر مما يعني صعوبة التنقل. جلبوا لنا بطانيات وقالوا: "كونوا جاهزين في الصباح إذا أردتم أن تعبروا." كان الدخول بجوازات السفر، لا أعرف كيف مرت هذه الليلة؟ لم أنم وكنت خائفة

جدًا.

- أيعني ذلك أنكِ عُدت مجددًا إلى (تركيا) بالفعل؟

- نعم، في الصباح جهزنا أنفسنا ووقفنا في الدور ثم دخلنا (تركيا)، وعدنا إلى البيت. كان أهلي قد غيروا البيت واستأجروا بيتًا آخر؛ كان البيت عبارة عن ثلاث غرف وحديقة كبيرة، البيت قديم جدًا. عندما دلفت البيت ور أيته صُدمت؛ لأنني لم أسكن في بيوت كهذه في حياتي مطلقًا، ولا أعرف كيف أتعامل معها؟

- أنتِ لا يعجبك شيئًا!

- وللأسف أتانا خبر محزن جدًا بعد بضع ليالٍ من وصولنا (لتركيا)؛ وهو خبر ضبط "حمزة" أخي من قبل الأمن بسبب الخدمة العسكرية، كان ذلك بمثابة صفعة كبيرة لنا جميعًا، وخيم الحزن على كل أفراد البيت، وكان لا بد من أن يسافر أحدنا إلى سوريا ليرى أخي حمزة ويعين له محاميًا، "أبي" وكَّل المهمة لخالتي،

وخالتي كانت تُعتبر أم حمزة بالرضاعة؛ لأن أمي رضعت ابن خالتي وخالتي رضَّعت "حمزة"، وخالتي الله ييسر أمرها لم تقصر.

- الخالة في مكانة الأم.

- وفعلت كل ما بوسعها "لحمزة"، وبالطبع لم تقصَّر معنا أي من خالاتي، وكلهن اتصلن علينا بهذا اليوم، والكل يقول: "نحن مستعدين أن نذهب لنبحث عنه ونتأكد هل هو بالسجن أم لا؟" حتى بنات خالاتي قالت إحداهن: "أنا مستعدة أن أذهب إلى السجن." وأمي قالت لها: "لا يا ابنتي، أخاف عليكِ؛ أنتِ صبية وعليكِ العين، لا تذهبي، اتركي خالتك تذهب لترى الوضع." وفي ليلة وصلنا اتصال من خالتي وهي بجانب "حمزة"، والحمد لله اطمأننا عليه وعلى صحته، وكان ذلك اليوم بمثابة عيد بالنسبة لنا، و اتصلنا بكل من نعرفهم وأخبرناهم أن "حمزة" اتصل

بنا، لكن بعد مرور ساعة صمتنا ونظرنا لبعضنا البعض وقلنا لبعضنا: "علام نبشر بعضنا؟!" إن "حمزة" ما زال بالسجن، ثم نرجع نحمد الله أننا اطمأننا عليه وعلى الأقل سنستطيع أن نراه ونوكل له محاميًا، وفي صباح اليوم التالي توجهت خالتي إلى المحكمة وطلبت إذن زيارة وأعطوها ليوم الأربعاء؛ أي بعد يومين من ذهابها، وسألتهم: "هل أنتم متأكدون أنه هناك و أنني إن ذهبت يوم الأربعاء سأراه؟" ثم حكت لنا ماذا حدث معها فقالت: "خرجت في السادسة صباحًا، وصلت السجن في تمام الثامنة، وقفت في الدور حتى حان دوري عند الثانية عشرة ظهرًا، ولكن لم يأت حمزة! سألتهم أين هو؟ فأخبروني أنهم أخذوه للمحكمة وإذا أردتِ أن ترينه الحقي به على المحكمة، وأخبرني أحد الشباب أن حمزة بخير و أنه معه بنفس السجن وإن شاء الله يخرج في أقرب

وقت، فسألته إن كان يعرفه حقًا؟ فأجابني بالإيجاب، وقتها خرجت من السجن مثل المجنونة أود أن أصل المحكمة في أسرع وقت، لكن الطرقات بعيدة، والحواجز تملأ الطرقات، وأعرف أن المحكمة تغلق أبوابها في تمام الثالثة ولن أستطيع أن أراه، نزلت من السيارة ووصلت المحكمة نحو الثالثة إلا ربع، صعدت الدرج هرولة، رآني عسكري و اقف عند باب غرفة المحاكمة فقال لي: "ما بك يا خالة؟ اهدأي، سيتوقف قلبك." قلت له: أرجوك، دعني أدخل إلى القاضي، ابني بالداخل وأريد أن أراه، وقد ذهبت إلى السجن وأخبروني أنه أتى إلى هنا. ولكنه قال: "ممنوع، و انتهى الوقت، لن تستطيعي رؤيته اليوم، تعالي في الغد." قلت له: اتركني أدخل أرجوك." -خالتي مسكينة، وسمينة وصحتها عليلة- أكملت خالتي وقالت: حن قلبه عليّ، وقال لي: "ادخلي، وإذا سألك أحد كيف

دخلتِ؟ أخبريهم أنكِ لم تجدي أحدًا بالخارج." دخلت و أنا أبكي وتتهدج أنفاسي، وأخذت أقول للقاضي: وفقك الله، فقط أود أن أرى ابني لدقيقة واحدة. قال لي: "لقد كان هنا وهو بخير، لكن الوقت انتهى، تعالي غدًا صباحًا وستكون محاكمته في الثانية عشرة ظهرًا إن شاء الله، وادعي الله أن يخرج وتأخذينه معكِ." سألته: أحقًا تقول؟ قال: "قولي إن شاء الله." قلت له: في الغد إن شاء الله سأحضر محاميًا معي."

حكت لنا خالتي كل هذه التفاصيل في المكالمة ثم أغلقت الخط. أخذنا نفكر من يوجد أيضًا في الشام يستطيع أن يذهب لمساعدة حمزة. قالت أمي: "اتصلي بصديق حمزة وأخبريه أن محاكمة حمزة غدًا، اطلبي منه أن يذهب ليراه، سيبتهج حمزة بذلك؛ فهو يحبه." اتصلت أنا "بكنان"، قال: "أنا خالي يعرف محاميًا نبيهًا، سآخذه معي." قلت له: خالتي أيضًا معها

محامي. قال: "لماذا؟" وأعطيته رَقَم خالتي يتواصل معها ويرتبان كيف يذهبون سويًا؟ ونحن لم ننم تلك الليلة مطلقًا.

- وهكذا أصبح لديكم أملًا.

- كنا ندعي ربنا بالفرج لحمزة ولجميع الشباب، بينما ننتظر اتصالًا من خالتي، وعند الساعة الثانية عشرة والنصف اتصلت بنا ابنة خالتي وقالت: "أريد هدية البشارة؛ حمزة خرج!" قلنا: "متأكدة؟!" قالت: "أجل متأكدة؛ لقد أخبرتني أمي الآن، وهما في طريق العودة، عندما يصلان سأجعلهما يتحدثان معكم."

يا الله على هذا الخبر! أخذنا نهلهل ونبكي ونهنئ بعضنا البعض، وأصواتنا ملأت البيت من الفرحة، وبعد ساعة تقريبًا هاتفنا "حمزة" وسألناه: "كيف صحتك؟" قال: "والله أنا بخير، وليس بي أي شيء، فقط اتركوني أستَحَمَّ ثم أعاود الاتصال بكم لأخبركم

بالتفاصيل."

- من المؤكد أن صوته رد الروح لأمك؟

- نحن برد قلبنا الحمد لله، والناس كلها عرفت، و أبي بالطبع عرف، وأخوتي اتصلوا يباركون لنا بخروج "حمزة" لآخر الليل، اتصل "حمزة وخالتي" ليلًا وأخبر انا كيف خرج من السجن، قالت خالتي: "توجهت للمحكمة وكان معي محامي، وصديق حمزة "كنان" كان معه محامي أيضًا، وصلنا المحكمة مبكرًا جدًا قبل بدء ساعات العمل الرسمية، قال المحامي صديق كنان أنه سيذهب ليقابل القاضي ثم يعود، فأخبرته أننا مستعدون لأن ندفع أي مبلغ حتى يخرجونه، وبعد ساعتين عاد المحامي وأخبرني أنهم أفرجوا عن حمزة، فسألته أين هو؟ فأخبرني أنهم سيخرجونه بعد قليل."

بعدها أخذ حمزة الهاتف وقال: "عندما دلفت إلى

المحكمة سألني القاضي: "بماذا شاركت في الثورة؟ هل خرجت في المظاهرات؟ هل حملت سلاحًا؟" فأجبته: لم أحمل سلاحًا من قبل قط، وجميع السوريين خرجوا في المظاهرات. فصدقني وأعطاني ورقة إخلاء السبيل بعدما تأكد أن موقفي سليم و أنني لم أنهِ دراستي بعد، و أيضًا لا يوجد أي شيء يدينني؛ كأعمال الشغب والعنف، و أنا على الباب أمسكني العسكري وقال لي: "توقف، لن تذهب قبل أن تعطيني حلاوة الخروج."

- فرصة بالطبع.

أكملت إسراء دون أن تجيبه:

أكمل العسكري: "سآخذك إلى أمك وأخيك وآخذ حلاوة الخروج منهما." قلت له باندهاش: أمي وأخي؟! فقال: "نعم، أمك السمينة تلك -كان يصف وصف يشبه أمي بالفعل- وشاب أشقر طويل." قلت لنفسي:

"هذا أخي بالفعل." ولكن في نفس الوقت لم أصدق وقلت لنفسي مجددًا: "كيف أمي هنا و أنا أعرف أنها بتركيا؟ وأخي "طاهر" كيف استطاع أن يأتي من (الدير)؟" خفت وقلت أنه ربما يكذب عليَّ، فقلت له: لا أريد، سأذهب وحدي. فقال: "لن تذهب وحدك، أريد الحلاوة." فأخبرته أن ليس معي ولا ليرة لأعطيها له، ولكنه أمسك بيدي ولف بي المحكمة من مكان لمكان، ولم نجد أحدًا فقلت له: بالله عليك، إذا لم يبقَ أي شيء يدينني فاتركني أذهب. فقال: "حسنًا، اذهب أنت، ليس لي نصيب في الحلاوة." تركته وأخذت أركض حتى باب المحكمة ومنه لخارجها، عبرت من بين الحارات خوفًا من الحواجز، بعدها فكرت إلى أين يجب أن أذهب؟ فقررت الذهاب لبيت خالتي "زمردة"؛ فبيتها هو أقرب شيء لهذه المنطقة، و أنا لا أملك ليرة واحدة في جيبي لأرتاد الأتوبيس، وخفت أن

أركب بأي سيارة فلربما مرت من عند أي حاجز، وإذا أوقفوني بهيئتي الرثة تلك فسيأخذوني مرة أخرى.

أخذت أَسِير في الشوارع مثل المجنون أريد فقط أن أصل لبيتها، عندما وصلت الميدان رأيت "كنان" أمامي، أخذ يناديني: "حمزة، أنا كنان!"

أخذ يضمني بسعادة، ثم أكملنا الطريق سويًا وقال لي: "خالاتك ينتظرنك." قلت له: من أخبركم؟ قال: نحن كنا في المحكمة، وساعدنا بإخلاء سبيلك، لكنك خرجت ولم نعلم إلى أين ذهبت؟ وكنا نبحث عنك."

سرنا قليلًا فوجدت خالاتي وأولادهم -الشباب والفتيات- يقفون في الشارع، رأيتهم من بعيد فركضوا نحوي، سلمت عليهم بحرارة، عندها عرفت أن المرأة والشاب اللذان حدثني عنهما العسكري هما خالتي وصديقي كنان."

وطلبت من حمزة أن يحكي لنا ماذا حدث له في فترة

الاعتقال ولكنه قال أن لن يقدر أن يحكي الآن وسيحكي لنا عندما نتقابل. - يا الله عليكم! اصبروا عليه قليلًا!

- وسألناه: هل أنت بخير؟

قال: "الحمد لله، أنا صحتي جيدة، لكن خرجت أجرب وملئ بالقمل!" وخالتي قالت: "غدًا إن شاء الله سآخذه إلى الطبيب لأطمئن عليه."

لم يستطع "أبي" الذهاب إلا بعد خروج "حمزة" بيومين، فذهب إليه واطمأن عليه، وأخذ له معه جواز السفر، وحجز له في طائرة متجهة إلى (لبنان)، ومن (لبنان) إلى (تركيا) (أضنة)، ومن (أضنة) (لأورفا)، وهذا كان طريق "حمزة"، وبالطبع أخذ المحامي أتعابًا قدرها مئة ألف ليرة سورية، و أبي حجز "لحمزة" واطمأن على كيف سيسافر؟ وبعدها رجع إلى (الدير)، ولم يرجع أبي إلى (تركيا)، ولكنه قال:

"سـأعود للـدير وأحـاول أن أخرج "طـاهر" وأولاده ونعود جميعنا إلى (تركيا)."

- أيعني ذلك أن جميعكم ستعودون للعيش هنا؟

- بالطبع، فنحن كنا في غاية السـرور لخروج "حمزة" من السـجن، لكننا ما زلنا على أعصـابنا، وقلنا: لن نطمئن حتى يصل إلى تركيا، وقتها سترتاح قلوبنا. وظل "حمزة" حوالي عشـرين يومًـا (بـالشـام)، حتى أن الشـباب والبنات أخذوه و أقاموا له حفلًا صـغيرًا في المطعم، و أتى يوم السفر، وأوصلته خالتي إلى المطار، و انتظرت حتى أقلعت الطائرة وأصـبحت بالسـماء بعدها رجعت إلى البيت، قالت: "كنت خائفة أن يأخذه أحد من المطار." "وحمزة" أيضًـا كان قد تملكه الرعب ونحن أيضًـا كنا خائفين عليه، وصـل (لبنان) وأخبرنا أنه وصـل (لبنان) وسـينتظر الطائرة الأخرى لمدة ست ساعات، وقال: "كنت أنتظر والخوف ينهش

بي مخافة أن يأتي أحدهم ويقبض عليّ من جديد."

وكنا نحن هنا لم ننم طيلة الليل، وكنا ننتظره أن يركب طائرة تركيا حتى ترتاح قلوبنا، فبقينا هكذا ننتظر حتى الصباح، وعندما قاربت السادسة والنصف صباحًا، ذهبت أمي وأخي فارس وأحضراه إلى البيت، كنت أنا أنتظر في البيت وأحضرت له باقة ورد، عندما وصل قابلناه بالزغاريد والبكاء، كان شعورًا رائعًا جدًا، والحمد لله أخيرًا أصبح حمزة بيننا.

- الحمد لله!

- بعدما وصل حمزة للبيت ارتحنا وعادت الحياة للبيت، لكننا كنا نشعر أن حمزة المسكين مكسور؛ نحل جسده وخف شعره كثيرًا، كان فرحًا أنه خرج من السجن، لكنه كان يشعر بالقهر مخافة أن يكون قد فقد مستقبله وبالطبع بدأنا التحقيق معه من أول

وجديد؛ كيف حدث ذلك؟ وكيف عاملوك؟ وما هي الأسئلة التي سألوها لك؟ وكيف خرجت بهذه السرعة؟ فأجابنا بقوله: "منذ أن أمسكوا بي و أنا أشعر بدعوات أمي تلاحقني، و أنني قوي رغم العذاب، والله كنت أحيانًا أفقد الشعور بالوجع، أما عن كيف قبضوا علي؟ كنت في البيت عندما دق الباب ففتحته زوجة طاهر، سمعتها تتحدث مع شخص وسمعت ذِكر اسمي، توجهت حيث هم فسألني أحدهم: "أأنت حمزة؟" قلت لهم: نعم. ولكن بدون أي مقدمات قاموا بقلب قميصي على وجهي وأخذوني، وسمعت زوجة طاهر تناديهم وهي تصرخ: "إلى أين تأخذونه؟" فأجابوها: "نحن فرع الأمن." فسألتهم: وماذا فعلت لتأخذوني؟ قالوا: "ستعرف هناك." ركبنا السيارة وسألوني عن بيت صديقي محمد، قلت لهم: لا أعرفه. فقاموا بضربي، قالوا: "كيف لا تعرف؟ نحن نعرف."

وتوجهوا إلى بيته و أتوا به هو الآخر، أخذونا حيث الغرف ووضعونا في غرفة متربمتر، بالطبع كنت أنا بمفردي في غرفة ومحمد بمفرده، وبقينا على هذه الحال لثلاثة أيام ولم يتحدث معنا أحد، أنا كنت أستغفر الله و أقول: الله أكبر، و أكيد أمي لن تنساني. بعد ثلاثة أيام أخذوني للتحقيق، وسألوني أسئلة غريبة عجيبة، من كثرة الأسئلة لا أتذكر ماذا كانت، لكن ما أتذكره أنهم سألوني كيف ذهبت إلى (تركيا) ورجعت إلى سوريا؟ سألوا عن أمي و أبي وعنك وعن إخوتي الشباب والبنات، و أنا كيف أدبر الأموال؟ وهل أنا تابع لأي جبهة أو حزب؟ ومن يعطيني الأموال حتى أخرب الوطن؟ قلت لهم: لست تابعًا لأحد، وليس لي علاقة بالثورة وكل المشاكل التي حدثت فيها."

"معتصم" يبدو عليه الانزعاج من سماع هذه الأحداث؛ وكأنه تأثر بها كثيرًا لحبه الشديد لحمزة.

أكملت إسراء على لسان حمزة بصوتٍ حزين:

قالوا لي: "كيف معك أموال والناس في هذه الأوضاع لم يظل عندهم أموال؟ و أنت كنت تذهب وتجئ بسيارة خاصة!" قلت لهم: أبي غني، وعندنا الحمد لله أموال، واسألوا أهل الدير عنا وعن أبي، نحن بيت فلان وقبل الحرب كان لدينا مصنعًا وأموالًا. فسألني: "لماذا رحلت (لتركيا)؟" قلت لهم: أمي مريضة، وكانت حالتها تحتاج لمستشفى، ولأن أصلها تركي أخذتها إلى هناك لتتلقى العلاج ومن ثم تذهب لبيت جدي. وأعطيتهم أسماء وعناوين، وسأل عن زوج أختي "أمل"، قلت له: أنا لا أتعامل معه، حتى لو كان عليه شيء فأنا لا أعرف. المهم أخذوني على فرع الأمن وبعدها أخذونا بطائرة إلى (الشام) بعد حوالي شهر من وجودي (بالدير)، كنت في الطائرة ومنبطحًا على الأرض ومغمضة أعيننا لا نرى أي شيء، وبالطبع كانت

أرجل العساكر فوق ظهورنا، سمعت صوتًا شعرت أنه صوت إنسان أعرفه، بعدها استطعت أن أنظر إليه بطرف عيني فوجدت أنه ابن الجيران وكان معهم محامي، عندما نزلت من الطائرة حاولت أن أضع يدي عليه لكي يعرفني ويخبركم." ثم سألنا حمزة إن كان أخبرنا فنفينا ذلك فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل! لم يعد أحد يهتم لشأن أحد! بعد فترة حوالي شهر تم عرضنا على القاضي وأخذ يسألنا من جديد ثم قال لنا: "أنتم كما هو مبين في التحقيقات كنتم تخرجون بالمظاهرات ولكن لم تحملوا أسلحة، وهذا الشيء قد يخفف عنكم الحكم، ولكن هذا إن كنتم صادقين فيما قلتم." ثم أعاد علي نفس الأسئلة و أنا أجيبه، وبعدي دخل صديقي فسأله وجاوبه، أنا لم أكن مع صديقي في نفس الغرفة، لكنني كنت أراه مصادفة أثناء التحقيقات، بعدها بفترة قال: "سنُرَحَلكم على

سـجن (درعا)." عندما قال ذلك فرحت وقلت الحمد لله، فهكذا سـيفرجها الله علينا من الوضـع الصـعب الذي نحن فيه. و أنا في سـجن (درعا) اجتمعت أنا وصـــديقي، وعرفت منه أنهم كانوا يســألونه نفس أسـئلتي، وكان يجيب نفس أجوبتي، يمكن هذا الشيء خفف علينا الحكم، عندما وصـلنا السـجن وجدناه باردًا فأعطانا الشـباب الذين هناك ثيابًا مما لديهم، واحد من الشـباب تعرف إلينا؛ فقد كان من (الدير) فقال لنا: "بعد يومين أو ثلاثة سـيسـمحون لكما أن تتصـلا بأهلكما عن طريق الهاتف." وقتها مُسحت كل الأرقام من ذاكرتي، ولكن صـــديقي كان متذكرًا رقم أخيه، وبعد بضـعة أيام أخذونا لنهاتفكم وأعطوا لكل واحـد منـا مهلـة دقيقتين فقط، جرب صـــديقي أن يهاتف أخاه لكنه لم يرد عليه، و انتهى وقته وأعطاني الرقم وقال جرب أنت، اتصـلت ورد عليَّ، وعلى الفور

قلت له: أنا حمزة، وأخوك محمد معي، ونحن بسجن (درعا)، أخبر أبي وتعالوا، نريد ثيابًا وأموالًا. و انقطع الاتصال ولم يعد بإمكاننا أن نعاود الاتصال، لكنني قلت لنفسي أنه سيخبرهم ويأتي أحدهم لنا، والحمد لله خرجت، ولكن أنا مقهور على صديقي محمد؛ أهله لم يستطيعوا الذهاب إليه، ومتوقف إخلاء سبيله على مجيئهم، ولكن الدير محاصرة، أدعو الله أن يفرج عنه."

-صديق حمزة أُخلي سبيله بعد حوالي ستة أشهر من إخلاء سبيل حمزة-

انتهينا من الأحداث التي عاناها "حمزة" بالسجن، وظل حوالي شهرين يتعالج من الجرب الذي أصابه، وكانت نفسيته سيئة، ووضعه محزن، هموم الدنيا فوق رأسه، فكان يقول: "لماذا حدث هذا لي؟ لقد انتهى مستقبلي." فكنا نقول له: لم ينتهِ، ابحث عن

عمل هنا في تركيا وأكمل دراستك هنا أيضًا. بحث في كل مكان عن عمل ولم يجد؛ كلهم يشترطون إكمال دراسته أولًا وأموالًا كثيرة ليقبلوا به، ونحن ليس لدينا قدرة مادية لندفع لهم، كما أنهم يشترطون وجود تمكن باللغة التركية. "حمزة" رغم أن الله نجاه بفضله من السجن، لكنه ظل فترة يعاني من حالة اكتئاب، كان حزينًا على عمره الذي مضى، وأن حياته ومستقبله قد دُمرا من جديد لأنه أتى إلى (تركيا) دون جدوى، كان يقضي ساعات طويلة على الهاتف يتصفح الإنترنت ولا ينام طيلة الليل، وكان يكرر دائمًا: "أريد أن أذهب إلى (إسطنبول) لأبحث عن عمل ربما أجد و أيضًا لأدرس." وبدون جدوى ذهب إلى هناك لمدة شهرين ولم ينل غير التعب وصعوبة العيش لعدم امتلاكه أموال بعدها أخذ يقول: "سأذهب إلى أصدقائي في ألمانيا، وهناك الدولة ستتكفل بدراستي

ومعيشـــتي." كنا نقول له: الله يوفقك. لكن بيننا وبين أنفســـنا كنا نقول: كيف ســـيذهب، اتركوه يقول، هو مجرد كلام فقط! كان كل يوم يقول لنا: "حاولوا أن تدبروا الأموال." فتقول له أمي: "يا بني، كيف تريد أن تقيم وحدك في الغربة والطريق صـــعب؟" فيقول لها: "لفترة وجيزة فقط وسأعود، وها أنا لم أمت بالسجن فلا تخافي علي من الغربة، إن شـاء الله لن يصـيبني أي مكروه." وكان كل يوم يتصل بأصدقائه ويسألهم عن الوضع هناك وما هي التكاليف؟ وكان يخبرنا بكل تلك التفاصيل ونحن تحترق قلوبنا عليه، ونقول لأنفسنا أنه لن يفعلها، هو مجرد كلام عابر. لكنه ذات يوم كان بزيارة لصديقه في (أورفا) و اتصل بنا وقال: "أنا سأسافر؛ لأن والد صديقي سيسافر إلى ألمانيا، فما رأيكم أن أســـافر معه؟ هو إنســـان كبيروواعي و أنتم ســـتأمنون علي إذا ذهبت معه؛ لأن أصـــدقائي لن

يـذهبوا إلى هنـاك إلا بعـد شـــهر." قلنـا لـه: تعـال ونتناقش بالأمر. و أتى وقال: "سأجهز أغراضي وأذهب معه." و اتصـــلنا نحن بأبِ صـــديقه، وفهمنا منه أنه سـيذهب هو وزوجته وأولاده، وأن معه أيضًـا الشـباب من أولاد إخوته، وأنهم ســـيتوجهون إلى (أنقرة)، ومن (أنقرة) سيهربون عن طريق مهرب في البحر (لليونان)، ويواصـــلون طريقهم إلى (ألمـانيـا)." أردنـا أن نـدبر لـه أموالًا لكنه قـال: "لن آخـذ مبلغًـا كبيرًا معي، ســـآخـذ فقـط أجرة الطريق من هنـا (لليونـان)، وإذا لزمني غيرها ســـأخبركم لتحولوا لي أموالًا." وبالفعل ذهب معهم بـالأتوبيس، وقبـل أن يـذهـب ظـل يبكي ويودع فينـا، وقـد كان لـدى أمي ذهبًـا فبعنـا قطعـة منه، و أنـا كان عندي راتبي أعطيته إياه، ودبرنا له حوالي 2500 يورو، وأخذ حقيبة صـــغيرة على ظهره بها أغراضـــه، وأمي صنعت له حافظة ليضع فيها أور اقه وأمواله في

صدره، ووضعنا كل أغراضه في أكياس مضادة للماء، كنا نجهز أغراضه وقلوبنا تحترق عليه لأنه سيتركنا ولا نعرف ماذا سيكون مصيره؟ لكنه سافر، أنا ودعته بالبيت وأمي و أبي ذهبا معه.

ظل حمزة (بأنقرة) لمدة أسبوع حتى استطاع أن يعبر؛ فقد كانوا كل يوم يذهبون للبحر ويعودون لعدم مقدرتهم على عبوره، حتى أتانا خبر أنه وصل والحمد لله، وكلهم بخير ولم يصبهم أي مكروه، لكن قلوبنا ظلت قلقة حتى اتصل بنا حمزة وأخبرنا أنه بخير، كان يتواصل معنا عبر الإنترنت وأخبرنا أنهم في (اليونان) وأنهم سيبقون بها لثلاثة أيام محبوسين حتى يعطونهم خرائط ويتركونهم يكملون طريقهم، وبالفعل بعد بضعة أيام رحلوا من (اليونان) وأكملوا طريقهم، بالطبع كانوا يمشون بين الغابات والجبال فتنقطع أخباره مدّة ويرجع يعرفنا أخباره، ومرة ظلوا بالغابة

ثلاثة أيام لأن المُهرب خدعهم وتركهم، ولكن الله لطف بهم، وحمزة كان معه بالحقيبة تمور كنت قد وضعتها له، وقلت له: هذا لا تمد يدك عليه إلا للضرورة، كلما يكون في طريقك طعام اشتري وكل، وهذا اتركه لوقت الحاجة هو وقنينة مياه. ونفذ كلامي، وعندما جاعوا في الغابة تذكر أن معه تمر فأخرجه وأكلوه هو ومن معه. وقال أيضًا: توصلنا للمهرب عن طريق الإنترنت فأوصلنا بواحد آخر يعمل معه، ركبت معه السيارة أنا وبعض الشباب، وكان يقود السيارة مثل المجنون."

كان حمزة قد أخبرنا أنه تحرك بالسيارة وكنا ننتظر أن يبلغنا بوصوله، بعد ثمان ساعات أرسل لنا خبرًا أنه "بألمانيا" بالسجن، نحن اطمأننَّا، المهم أنه وصل، ونحن كنا نعرف أنه يريد أن يسلم نفسه للألمان، كان قد استغرق شهرًا كاملًا في الطريق ليصل لوجهته، بعدها أخبرنا أنهم على الحدود الألمانية، وأن السائق

كان مثل المجنون، وكان سيتسبب في وقوع حادث لهم لكن الله سَلم، من شدة سرعة السائق رأته الشرطة ولحقت بهم وأوقفتهم وأخذتهم للتحقيق، لكنهم أخذوا السائق للسجن مباشرة حتى تتم محاكمته، أما حمزة وأصدقائه فخرجوا وأخذوهم على الكامب؛ وهو عبارة عن بناء كبير يضعون فيه اللاجئين عند وصولهم ريثما يقوموا بتوزيعهم على المدن والبيوت، كان في كل غرفة أربعة أشخاص يأتوهم بالطعام والشراب ويعطونهم مبلغًا بسيطًا يدبرون به أمورهم ظل حمزة حوالي الشهرين، بعدها أخذوه إلى بيت وخصصوا له معاشًا، ودخل مدرسة كان معه صديقًا من قبل كان (بألمانيا) وذهب إلى نفس منطقته وحاول أن يستأجر البيت قريبًا منه وظلوا دائمًا مع بعض منذ وصل حمزة إلى هناك وعاين الوضع وهو يقول لنا: "أتمنى أن تأتوا إلى هنا ولا تبقون بتركيا، ابعثوا أخي فارس

ليعيش هو وزوجته هنا." رد أخي الكبير "طاهر" وقال: "أنا وأولادي لن نذهب، سنعود إلى سوريا." وأخي "فارس" قال: "أنا أود أن أذهب ثم أبعث إلى زوجتي و ابنتي ليلحقا بي." من كثرة ما افتعلت زوجة فارس مشاكل معنا أخذت أمي تضع في رأسه فكرة السفر؛ لأنه كان يريد تطليقها في الفترة الأخيرة، وأمي قالت له: "يا بني، اذهب أنت وزوجتك إلى (ألمانيا)." قال: "لا، إذا ذهبت فلتأتوا معي أنتم أيضًا." قالت له: "يا بني، الأموال لا تكفي، دعنا ندبر أمر سفرك في الوقت الحالي ريثما نبيع السيارة في الصيف القادم وندبر تكاليف السفر ونلحق بك." كان هذا الحوار بعد سفر "حمزة" بشهر ونصف تقريبًا. كان السفر إلى (ألمانيا) قد أصبح أسهل؛ الناس تصل (اليونان) وهم يبعثونهم بالقطارات والأتوبيسات من مكان لمكان، يعني لم يكن هناك عذاب مثل عذاب "حمزة"، لكن

المخيف في الأمر هو البحر، و"فارس" كان عنده ابنة عمرها أربعة أشهر، كنا نخاف عليها. اقترض أبي تكاليف سفر"فارس" من صديقه بالسعودية، وأمي باعت قطعة ذهب، وامرأة أخي باعت ذهبها أيضًا، وجمعنا التكاليف وتيسر السفر، وما شاء الله كان طريقه سهلًا؛ خلال أسبوع كان قد وصل (ألمانيا)، لكننا أصبحنا وحيدين، لم يبق لدينا أحدًا من أخوتي؛ أخي "طاهر" (بأنطاكيا) وأنا وأبي وأمي بالبيت، أخواتي البنات بسوريا، أمي كان قلبها يحترق وتقول: "الله يسامحها امرأة أخوكِ، جعلتني أستغني عن ابن قلبي." كانت كلما مرت على مكان عمل أخي تبكي، وبالطبع سافر أخي "فارس" ونحن لم يتبق لدينا مصروف؛ كل الأموال جمعناها وأعطيناها إياه، فقلنا بما أننا سنلحق به فسنبيع أغراضًا من البيت، بعنا غرفة نومه؛ لأن أنا لم يكن لي معاش بعد لأنه لم

يبدأ دوام المدارس، بعدما سافر "فارس" وصلنا كارت بقيمة 200 ليرة لنشتري بهم أغراضًا من الماركت، عندما وصلنا الكارت ذهبت وأحضرت مؤونة كاملة للبيت؛ من أرز وسكر ودجاج، كل ما يلزمنا اشتريته وقلت أشتري كل ما ينقصنا كل شهر. قررت أن أبحث عن عمل الشهر القادم حتى أعمل و أتحصل على مصاريف للبيت. كل يوم كان يمر علي كنت أشعر أنني أختنق من كثرة التفكير، وكيف سندبر أمورنا؟ عرض أبي السيارة للبيع، والحمد لله بدأت العمل من بداية الشهر وقالوا سآخذ معاشًا قدره 900 ليرة فحمدت ربي. أصبحت أقوم بدور الشاب والبنت بالبيت ومسئولة عن كل شيء، أمي و أبي كبار في العمر وبحاجة إلى الاهتمام والرعاية، أخي طاهر كان يذهب ويجئ ويقول: "تعالوا معي لنعيش مع بعض." قلت له: كيف نعيش معك و أنت مقيم في بيت أهل

زوجتك، وأنا هنا أعمل الحمد لله وأتحصل على راتب نتعيش منه، أنت حاول أن تدبر أمورك ونسافر جميعًا (لألمانيا).

ولكن صعبت الأمور ولم نستطع الذهاب (لألمانيا) وصار الأمر مستحيلًا، فقررت أنه لا بد من أن نغير بيتنا ونقيم في بيت أفضل قليلًا. كنت خلال تلك الفترة يأتي ناس لخطبتي وأنا أرفض وأقول لهم أنني لا أستطيع أن أترك أهلي بمفردهم، وبعدها قررت أختاي البنات أن تحضرا إلى (تركيا) لأن الوضع في (سوريا) لم يعد آمنًا؛ فقد انتشرت داعش بالمناطق التي تعيشان فيها، وأولادهما أصبحوا شبابًا ومن الممكن أن تخطفهم داعش وتبقيهم معها. كان في (تركيا) شيئًا اسمه "لم شمل"؛ يعني أبي كان يقدر أن يطلب أختيَّ ويحضرهما إلى هنا، قمنا بعمل لم شمل لأختي الصغيرة مع أولادها؛ لأن كان عندها جواز سفر

هي وأولادها الحمد لله، أتت أختي الصغيرة وبعدها بفترة أتت أختي الكبيرة مع أولادهم، وظلوا معنا فترة حتى وجدت كل منهما بيتًا و أقامت فيه وتحصل زوجيهما على عمل، عندها ارتاحت نفسيتنا قليلًا؛ لأننا لم نعد بمفردنا واجتمعنا بعد غياب طويل، لكن كانت السنة صعبة، لأننا كنا وحدنا بالغربة.

معتصم يخرج عن الصمت:

- يا الله! يا لها أحداث مثيرة وصعبة على حمزة وعليكم! هل إذا كنتِ الآن (بسوريا) كنتِ تتوقعين مجرد توقع أو تخيل أنك ستتركين (سوريا) وتسافرين لتعيشي بأمان بتركيا أو ألمانيا؟!

ضحكت "إسراء".

- يا حبيبي كان كل طموحي أن أخرج إلى (السعودية) لأعتمر وأحج، لكن لم يخطر ببالي قط أن أرتحل إلى (تركيا) متهجرة أو إلى أي بلد آخر ولا حتى على سبيل

الزيارة والترفيه، نعم كان حالنا ميسـرًا جدًا ونملك أموالًا كثيرة لكن لم أفكر مطلقًا في السـفر خارج سوريا، إلا أن روحي كانت تهفو للأراضي المقدسة أنا وكل سوري وسورية؛ غني أو فقير، لكن الذي حدث معنا لم يكن بحسبان أي أحد حتى الذين لديهم مصالح في حدوث ذلك، ما كانوا يتوقعون أن هذا سيحدث ولكن هذه إرادة الله، والحمد لله على كل حال.

- أتعرفين ما هو أكبر شيء أتعجب له؟

- ما هو؟

- أنكم متقبلون تلك الأفعال؛ ترتحلون إلى تركيا بأعجوبة وشيء شبه المستحيل، وترجعون إلى سوريا ثم إلى تركيا مرة ثانية، وأخوكم وزوج أختكم بالمعتقل... إلخ.. إلخ.. ما كل هذا؟ سبحان الملك!

- ما كان هناك وقت لنتأمل أو نتخيل ما نحن فيه أو

الذي نحن نفعله؛ لأننا مجبرون على هذا وما بأيدينا غير ذلك، مجبرون يا "معتصم"....

ودموع "إسراء" تنزف من استعادة ذكريات الماضي.

- أنا آسف جدًا، لا أقصد.

- لا يهمك، أنت جعلتني أفضفض قليلًا وأخرج ما في قلبي، هل أكمل أم أتركها لبعد غد؟ خذ أجازة في الغد وآخذ أنا أيضًا أجازة وننهي حكاية القصة، أم لن تتحجج بقصتي وستركز في عملك الجديد؟

- تمام زوجتي العزيزة!

وأشرقت شمس يومٍ جديد في بيت بسيط، يتسم أهله بالروح الجميلة والخُلق الحسن، الطيبة وقصص الكفاح من أجل البقاء.

- صباح الخير.

- صباح النور.

- ريثما تنتهي من حمامك ستجد الإفطار جاهزًا.

- تسلم يديكِ، آفين استيقظت؟

- أطعمتها ونامت مرة ثانية؛ لأنها استيقظت مبكرًا، أنت الذي نمت كثيرًا.

- هل تريدين شيئًا من الماركت أو أي مكان؟

- هل تود الخروج؟

- لا، لكن أسأل إذا كنت تريدين طلبات للبيت فأحضرها لكِ.

- بعض الطلبات البسيطة.

- سأذهب لأجلبها، و أيضًا سأجلب أي شيء نتسلى به ونحن نحكي.

وبعد ساعتين طاولة الاجتماعات المغلقة تبدأ من جديد.

- أُذكرك مثل كل يوم، لكن قبل أي شيء أريد بعضًا من الحِكم والتي كنتِ تتمسكين بهم وتتقوي بهم وقت شدتك والأيام الصعبة التي مرت عليكم.

نظرت "إســـراء" إلى "معتصـــم"، ولكن العقل ذهب بعيدًا ليفتش في القراءات التي ذكَّرها "معتصـــم" بها من جديد، ثم استفاقت من شرودها وقالت:

- عندي كنوز غالية وأريد ثمنها أولًا.

رد "معتصم" بلغة التجَّار هو الآخر:

- اعرضي مُنتجك، وإذا أعجبني سأدفع فيه الكثير.

لم تفكر "إســـراء" كثيرًا وقـابلـت عرض "معتصـــم" بالقبول.

- بســـم الله، قـد قـابلـت عبـاراتٍ شـــديدة الجـاذبيـة والجمال والو اقعية، من الممكن أن نقول عليها دورة من أقوال الأئمة الكبارفي الإســـلام مثل: ســـيدنا عمر بن الخطاب، وسيدنا على بن أبي طالب، وسيدنا عبد الله بن مسعود، والفضيل بن عياض.

- الله الله، أمتعيني بتلك الأقوال.

- قال سيدنا عمربن الخطاب -رضي الله عنه-: "بين

العبد ورزقه حجابٌ، إذا رضـــي وقنع أتاه الرزق، وإن اقتحم وهتك الحجاب لم يزد فوق رزقه."

وقال أيضًا: "عليك بإخوان الصدق فعش في أكنافهم؛ فإنهم زين في الرخاء وعدَّةٌ في البلاء."

وقال أيضًا: "العاجز من عجز عن سياسة نفسه".

- ما شـــاء الله عليكِ يا زوجتي الغالية، ما أجمل ما تقولين!

- وقال ســـيدنا علي بن أبى طالب: "عجبًا لمن يهلك ومعه النجاة، قيل له: وما هي؟ قال: التوبةُ والاستغفار."

وقال أيضًـــا: "ثمرة القناعة الراحة، وثمرةُ التواضـــع المحبة."

و أيضًا: "الحِلم غطاءٌ ساتر، والعقل حسامٌ قاطع".

- يا للكِ من امرأةٍ قويةٍ في كل شيء! في التواضع والزهد والعلم، اللهم لك الحمد على نعمة الزوجة الصالحة.

فرحت "إسراء" بدعاء ورضا زوجها ثم قالت:

- ندخل في استكمال القصة، يجب أن نقفل على الموضوع فقد استطال جدًا.

- أود أن يطول أكثر وأكثر يا عمري، أنتِ حديثك كله جمال، لكن لا أريد أن أقلِّب عليكِ المواجع، لكن أريدك أن تحكي وتفتخرين بحالك وحال كل فرد عربي أو إنسان قاوم ولم تقتله الظروف، وكمان أود أن أتقوى بكِ وبقصتك.

الحماس ملأ "إسراء" من كلمات "معتصم" المُنعشة ثم قال "معتصم":

- هل أذكرك بوقفتنا الأخيرة في القصة؟

ابتسمت "إسراء":

- لا، أذكر كل شيء، لكني أتدلل عليك يا حبيبي!

- إذا كان هكذاْ فعلى راحتك.

- المهم ننتهي منها حتى تركز في عملك.

- احكي.

- عندما أتت أخواتي البنات إلى تركيا وضعنا تغيَّر، أصبح هناك من يزورنا ونزوره، وكلما أتى لخطبتي أحد كانت أختاي تقولان لي: "ليس لديك علة للرفض؛ فها نحن هنا وسنهتم بأبينا وأمنا." فبدأت أفكر في الأمر ومن الممكن أن أتزوج ولكن إذا وجدت شخصًا مناسبًا، ولكن كلما تقدم لخطبتي أحد لا أشعر بالارتياح وأشعر أن روحي تكاد تخرج مني ولا أشعر بالفرحة، بعدها ذهبت لشيخ وحكيت له قصتي وقلت له:

لثلاث مرات أجد الجواكت الخاصة بي مكتوبًا عليها بالأحمر، ولا أعرف كيف، ودائمًا أشعر أني غير مرتاحة، ونَفَسي ينقطع ويتهدج، ونومي قليل. فقال لي: "لا بد أن تقرأين يوميًا رقية شرعية للعين والحسد." قلت له: لماذا؟ ماذا لدي لتحسدني الناس

عليه وتصيبني بالعين؟ قال: "أنتِ العيون كثيرة عليكِ، و أقرب الناس هم الذين يحسدونك." المهم، قررت أن ألتزم بكلام الشيخ، وكنت يوميًا أسمع الرقية الشرعية، و أتلو أذكار الصباح والمساء، مع قراءة سورة البقرة، وبعدها شعرت أني مرتاحة أكثر من ذي قبل الحمد لله. أما أخواي "حمزة وفارس" فحاولا أن يتأقلما على المعيشة بألمانيا، لكن كان الوضع بالنسبة "لحمزة" مختلفًا؛ لأنه كان وحيدًا هناك، كان يقول أن ألمانيا رائعة لكن الغربة صعبة، ودائمًا يبكي ويقول: "لا أستطيع أن أنسى أمي و أنساكم، لقد أصبحت بمفردي في الغربة." ونحن كل يوم نندم لماذا لم نزوجه قبل رحيله يمكن كانت زوجته تخفف عنه وحدته؟ والحمد لله على كل حال. و أنا استمر دوامي بالمدرسة وكانت أيامي تمر يوم حلو ويوم تعيس، وأرجع أحمد الله أني مع أهلي وأهلي بخير

وسلامة، وفي سنة 2015 ومع بداية الدوام المدرسي انتقلت إلى مدرسة جديدة، وكان هناك أتوبيسات مخصصة للمدرسة، أول أيام الدوام كان معنا سائق، كان كل يوم يمر علي يأخذني معهم إلى المدرسة، ظل الوضع هكذا حوالي 15 يومًا وبعدها....

- وبعدها أكمله أنا.

ضحكت "إسراء":

- أكيد، أنت تعرف الباقي.

- رأيتك، أنتِ وأمك أمام المدرسة، ولأن والدتك سيدة كبيرة أوقفت السيارة وطلبت أن أقلكم في طريقي، لكن أنتِ رفضتِ وقلتِ: "أتوبيس الدوام سيأتي بعد قليل."وبعد رفضك هذا نظرت لوجهك وغرقت في عيونك، وعندما قلتِ لي أتوبيس الدوام ور أيت الكتب التي كانت معك عرفت أنك معلمة، وكنت أمر بنفس الوقت كل يوم حتى أراكِ، وبعد أسبوع -وكنت أعرف

مدير الدوام الذي تعملي فيه، كان صديقي- اتصلت به وحكيت له عنك، وعرفت أنك سورية، و أنك متعينة جديدة، وعرفت أيضًا أنك تتعلمين اللغة التركية وقريبًا ستتقنيها، و أيضًا أنك مقدِّمة على الجنسية التركية وتسيري في الإجراءات، وسألت عن عائلتك وكل من يعرفكم يقول عنكم كل خير، دخلتِ رأسي. عندما كان أهلي يُلحون عليَّ في موضوع الزواج كنت أتحجج، لكن عندما رأيتك وعرفت عنك أشياءً كثيرة قررت أن أخبرهم، لكنهم رفضوا رفضًا قاطعًا وخصوصًا أمي.

- أكيد، أعرف هذا جيدًا!

- لكن أنا أصريت أن أتقدم لك.

- وبالفعل أتيت، وصدمت عندما رأيتك؛ فقد كنت ألاحظ مرورك من أمام الدوام كل يوم وقت خروجنا من الدوام، لكن لم أكن أعلم عنك أي شيء سوى

أنك أتيت مرة وعرضت علينا أن تقوم بتوصيلنا.

- قولي لي لماذا أتت أمك عند المدرسة ذلك اليوم؟

- سبحان الله، هي المرة الأولى والأخيرة! لقد كانت عند خالتي، وخالتي أخذتها لسيدة عندها لوازم البيت بأسعار مناسبة، فذهبت لخالتي وأخذتها وعاينت تلك الأشياء ولم يعجبها شيء، كانت تعرف ميعاد خروجي من الدوام وكانت تعرف أيضًا مكان الدوام، عندما مرت على الدوام وهي مع خالتي اتصلت بي وقالت أنها ستنتظرني لنرجع البيت مع بعض.

- ولماذا أنتم قبلتوني و أنتِ تقدم لك عرسان كثيرة؟

- أولًا هو نصيب، وثانيًا لأنك كنت تعرف اللغة العربية، وكانت ملامحك أيضًا تشبه السوريين، ولأنك طيب جدًا، كما أن أبوك يستطيع الحديث بالعربية، وكنت أشعر أنه هادئ وحكيم مثل أبي، والحمد لله أنه أكرمني بِك.

- الحمد لله، أتتذكري عندما حصلتِ على الجنسية بعد أسبوع من الخطبة؟

- كنت سعيدة أنني كسبت التحدي، وقدرت على أن أغيَّر ظروفي و أتغلَّب على اللغة، و أيضًا أتعايش مع المجتمع الجديد، رغم ما يحيق بقلبي من ألم بسبب ضياع وطني الأصلي و أنني حصلت على جنسية غير جنسيتي الأصلية.

- لكن هذا شيء ليس عيبًا أو حرامًا، إنها الظروف، و أنتِ لا استسلمتِ ولا قبلتِ أن تكوني عندك نقص وتكوني مثل أي شخص يعيش بتركيا وله نفس ظروفك.

- كله هذا مجرد كلام، لكن كل ما حدث لنا كنا مجبرين عليه ولم يكن برغبتنا.

- احكي لي عن أمور أخوتك الشباب كيف أصبحت كما هي الآن في الوقت الحالي؟

- كما أخبرتك من قبل، عندما وصل "حمزة" إلى (ألمانيا) عمل في الفترة الأولى له هناك ساعي بريد، لكنه كان مسرورًا بالعيش (بألمانيا)، الذي كان ينقصه فقط هو حنية أبي وأمي، وكان كلما اتصل بنا يبكي ويقول: "أحتاج إليكم." وبعدها تحسنت أموره وقدَّم من جديد في الجامعة لأنهم كانوا قد رفضوا الشهادة الخاصة به، ثم تخرَّج وهو الآن يعمل في مهنته، لكنه لم يتزوج حتى الآن كما تعلم. كان "طاهر" أخي قد بدأ يعمل في تركيا في مجال المقاولات والتشطيبات، وكان "فارس" يفهم في هذا المجال وبعث له "طاهر" ليعود من (ألمانيا) ويفتحا سويًا مكتب المقاولات، وبالفعل و افق "فارس"، وكان "فارس" بعدما وصل إلى (ألمانيا) قد عمل لبعض الوقت في العمالة حتى استطاع أن يجمع مبلغًا من السفر، فأعطى جزءًا "لطاهر" والجزء الثاني استأجر به بيتًا و انتقل فيه هو وزوجته

حتى تكف عن افتعال المشاكل معنا، و"طاهر" ضبط وضعه مع "فارس" بالشركة، وربنا يرزقهم بالرزق الحلال الواسع. وكان أبي يخرج يغير جو ويمر عليهم يساعدهم على التعاقدات؛ لأنه كان تعب كثيرًا من بقائه بالبيت. وأمي الحمد لله بعد قدوم أخواتي البنات إلى تركيا حالتها تحسنت، وكانت تجدهم حولها دائمًا، وكانت تزور أهلها بتركيا واعتادت على الوضع هنا.

- كل فرد من العائلة له قصة بطولية عظيمة.

- لا، ليس كل شخص بالعائلة فقط؛ فكل شخص تهجَّر من بيته في كل أنحاء العالم هو عظيم وبطل؛ لأنه استطاع أن يعيش رغم الواقع المرير، كثيرًا ما كانت فكرة الانتحار تلوح برؤوسنا من شدة وصعوبة الظروف، لكن الحمد لله أننا مسلمون ونعرف أن الانتحار حرام ونعرف أن مع العُسر يسرًا، لكن

الأوقات واللحظات في وقت الصعوبات ما كانت تمر، كنا نشعر أن الصعب لن يزول، كنا نفقد الأمل بكل ثانية وكل دقيقة، والحمد لله الذي كان لطيفًا بنا، كان كلما يأسنا نجده يفتح لنا طاقة نور ينسينا بها الهموم التي على أكتافنا.

- الحمد لله، أرجو أن يقدرني ربي وأجعلك تعيشين حياة جميلة معي، ونُكوِّن بيتًا وعائلة عظيمة؛ لأن أمهم من العظماء وتستحق أن يكون أولادها عظماء.

- أنت زوج جميل جدًا، وقفت بجانبي، و أنت من أكثر طاقات النور التي أهداني إياها ربي في الفترة العصيبة، بعدما كان قلبي ينام حزينًا كل يوم بسبب العرسان الذين يتقدمون لي؛ فمنهم من كان متزوجًا من ثلاثة، والذي كان قد اختنق من زوجته الأولى، ومنهم من تخطى عمره الخمسين، كنت أشعر بأنني سلعة تباع وتشترى، وكان إلحاح أهلي كبيرًا، ونريد أن نفرح بكِ

وكل هذا الكلام، حتى أكرمني ربي بك.

- ربنا يخليكِ لي وما يحرمني منك، أنا سأذهب لأصلي العصر ثم أجلب بعض المستندات لأراجع العمل حتى أكون جاهزًا للعمل الجديد، أسأل الله أن يجعله فاتحة خير علينا.

- و أنا سأهتم بأمور البيت وأصلي و أتفقد "آفين"

- إذن، لنتوضأ الآن ونصلي جماعة.

- تمام.

بعد الصلاة توجه كل منهما لما تم الاتفاق عليه، وفي اليوم التالي ذهب "معتصم" للعمل الجديد وعادت "إسراء" إلى المدرسة، وذهبت "آفين" لجدتها، واستمرت الحياة بهذه الطريقة لمدة ثلاثة أشهر.

- "إسراء"، قولي لي مبارك!

- ألف مليون مبارك، ما شاء الله؛ وجهك مبتهج ومنير، فرحني معك!

- ترقيت درجتين خلال فترة قصيرة جدًا، و أيضًا حصلت على زيادة في الر اتب حوالي 25 %، وهناك فرصة لأن أعمل عمل خاص بجانب عملي؛ مما يعني أنني يمكنني أن أفتح شركتي مرة أخرى لكن بمفردي، ولكن ليس الآن، ممكن بعد ستة أشهر من الآن إذا تيسرت أموري وسارت على نفس الوتيرة.

-مبارك! فرَّحت قلبي لفرحك، ربنا يرفع قدرك أكثر وأكثر.

- اليوم عندنا خروجة مع أخوتي وأخوتك.

- من قال لك ذلك؟

- أنا، لقد عزمت أخوتي وزوجاتهم وأولادهم، و أيضًا هاتفت "فارس وطاهر" وقلت لهم، وسيأتوا هم وزوجاتهم وأولادهم، سنخرج نتعشى ونسهر سهرة ستعجبك جدًا.

- أنت عظيم جدًا حبيبي، و أيضًا الخروجة مفاجأة

جميلة جدًا منك.

- أنتِ تستحقين أكثر من ذلك، ربنا يقدرني وأعوضك عن كل دقيقة صعبة مررتي بها، وأن نبني حياة ناجحة سويًا.

ضحكت "إسراء":

- نبني ماذا يا "معتصم"؟ نحن قد جاوزنا العامين ونحن متزوجان؟!

- حتى لو كانوا عشرين عامًا حبيبتي، كل يوم سيكون كأنه أول يوم.

- الله على حلاوة كلامك!

- هيا تجهزي للخروجة.

- تمام.

بالفعل كانت خروجة في موعدها ووقتها لأكثر من سبب؛ أهم سبب هو اجتماع جماعي في جلسة سمر وسهر وتصفية للنفوس بعد التوتر الذي كان في

الفترات الأخيرة، و أيضًـــا لتجديد النشـــاط وتجديد مفهوم أن الحياة جميلة بالأسرة والأماكن الجميلة.

- شكرًا "معتصم"!

- علامَ الشكر"إسراء"؟

- على كل شـــيء؛ خروجة جميلة، المســـتوى المادي يتحســـن، الروح الجميلة التي كانت في شـــهر العســـل عادت من جديد، حقًا إن حياتى بأحســـن حال معك، مع أنني كنت أعيش حياة جميلة جدًا بســـوريا قبل الأحـداث، ولمـا مررت بـالأحـداث ظننـت أن الأيـام الجميلة عندي قد انتهت، لكن عندما أكرمني الله بك دخل كثير من الجمال إلى قلبي.

- يـا لجمـال كلمـاتـك! مـا هـذا؟ أمتزوج أنـا من كبيرة الشعراء؟!

- و أيضًا سأتصل بأمك في الغد لأطمئن عليها.

ابتسم "معتصم":

- جبر الله خاطرك، ما رأيك أن نشتري بيتًا جديدًا وسيارة؟

ضحكت "إسراء" ضحكة سخرية.

- "معتصم"، واضح أن ضغط العمل والسهرة الحلوة رفع من خيالك!

- خيالي؟ ولنفترض أنه خيال، هناك جملة تقول: "كل ما يأتي في خيالك يمكن أن يصبح واقعًا".

- الله على فيلسوفي! هيا ادخل لتنام؛ لديك عمل مبكر.

- سأقدم على شقة وسندبر المقدم ونستقطع كل شهر جزءًا من الراتب، ويجب أن تتدبري طلبات البيت مع المبلغ الذي سيتوفر.

- أرى أنك قد رتبت كل شيء!

- وأيضًا رأيت تصميم الشقة والمنطقة التي تحاوط المنطقة التي ستكون فيها الشقة.

- متى فعلت كل هذا يا"معتصـــم"؟ و أنا لا أعرف أي شيء عن الموضوع! أهكذا يا "معتصم" لا تخبرني؟!

- الخبر كان مفاجأة مثل الخروجة.

- أحلى مفاجأة حبيبي، و أنا سأساعدك.

- لا.

- لماذا لا؟

- أنتِ ستشترين السيارة.

- ماذا تقول؟

- أنا أيضًا اتفقت على سيارة ور أيتها وسأدفع مقدمها، لكن تقسيطها أنتِ التي ستدفعيه وسأكتبها باسمك.

- "معتصم"!

- نعم؟

- لقد انتهينا لتونا من أقســـاط الزواج منذ شـــهرين، أسنعود مجددًا للأقساط؟

- إذا كان لدينا نُقُودِ كنا دفعنا مبلغًا، لكننا مجبرون

مثلما تقولين.

- لكن هذا باختيارنا!

- و أنا اخترت أن يكون لنا أكثر من بيت، وسيارة جيدة، ومعي زوجة جميلة و ابنة كالأميرة.

ضحكت "إسراء" بشدة:

- هكذا لن نقدر على النوم مرتاحين من كثرة الأقساط، وتعب في التفكير لتدبيرها!

- لا تقلقي، كوني قوية، الحمد لله أنا عملي يتطور بسرعة وسيكون لي عمل خاص بجانب راتب الشركة، بالإضافة إلى جزء من راتبك، لكن ما سنفعله اليوم أحسن بكثير من الغد.

- "معتصم"، تعرف أنني أتوق لهذه الأشياء بشدة؛ لأننا بسوريا كنا نملك أكثر من سيارة، وأكثر من بيت في دمشق والدير، ولكن أنا بعد الذي حدث لنا أصبحت أقدِّر كثيرًا الظروف أكثر من تقدير الرغبات

وتحقيقها.

- لا يوجد وقت لتقدير أحد سوى تقدير الذات؛ نقدرها بالحفاظ على الدين، نقدرها بالاجتهاد، نقدرها بالمال والجمال والثروات، مثل البيوت والسيارات؛ فهي من أجمل التقديرات للذات.

- يعني أنت قررت و أيضًا لديك كل رد على أي سؤال؟!

- بصراحة نعم، كفاكِ مجادلات في أمر منتهي، أنا سأدخل أبدل ملابسي و أنام، تصبحين على خير!

- و أنا أيضًا ، و أنت من أهله.

بعد شهرونصف ذهب "معتصم" ودفع مقدم الشقة، وأخذ "إسراء" لتراها وأعجبتها جدًا، و أيضًا ذهبا ودفعا مقدم السيارة، وهكذا "معتصم" يكون قد بدأ خطوات تقدير الذات.

وبعد ستة أشهر فتح "معتصم" شركة استيراد وتصدير مع شريك كان يعرفه، وكان محافظًا على

وظيفته في الشـــركة الجديدة التي تعتبر فاتحة الخير عليه، وبالاجتهاد و إتقان العمل وصـل لمنصـب مهم في الشركة، و أثبت أنه جدير بوظيفته، وذلك بالطبع كان من خبر اته الســـابقة، بالإضـــافة لطموحه في إثبات ذاتـه حتى يحقق حلمـه أن يكون بطـل حكايـة مثـل زوجتـه التي يفتخر بهـا وبعـد مـدة من التـدرج في المناصـــب قرر أن يترك الشـــركة ويتفرغ للشـــركة الخاصـــة به التي تعب كثيرًا حتى وصـــل لها، وأخذت الظروف تتحسـن أكثر بين "إسـراء" وعائلة "معتصـم" بعد انفصـــال "معتصـــم" عن أخوته و إنشـــاء عمل خاص به، كما أن "إســـراء" ما زالت تطور من نفســـها وتتحصل على كورسات في عملها حتى لا تشعر بالعجز أو التقصـــير، كما أن عـائلة "إســـراء" يوم بعـد الآخر تتحســـن أحوالهم، ولم يعودوا يشـــعرون بـالغربـة والعزلة.

تمت بحمد الله

ونتقدم بالشكر للمصممة روان أشرف على مجهودها المميز المبذول في العمل.

داربقلمكِ للنشر الإلكتروني

مجبرون

هذه الرواية التي بين يدي القارئ العزيز
من تأليف أبطالها بناء على احداث حقيقية
تحكي قصة واقعية حدثت مع عائلة سورية
مثل آلاف العائلات السورية
نقلتها ودونتها بكل شفافية
لرغبتهم في ذلك
وتقديرًا وإجلالًا واحترامًا لهم على ما تعرضوا له
كمثل آلاف العائلات من الشعوب
الذين يفرض عليهم الهجرة وترك منازلهم وأعمالهم
لظروف فرضتها عليهم الأيام والأحداث
فكان لا بد من الهجرة إلى أرض الله الواسعة

تصميم: دينا عبدالفتاح